

كتاب مجلة " كلمة حق " (١١)
هدية العدد (٢٢) من مجلة " كلمة حق " مايو - ٢٠١٩
يسألونك عن
الجبهة الإسلامية للإنقاذ
الصغير منير

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق" بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

مقدمة

سؤال يُطرح كثيرا، ويختلف الجزائريون في جوابه بشدة كلّ من منطلقاته والزاوية التي ينظر منها إلى ما حدث خلال قرابة ثلاث سنوات من عمر الجبهة [1]، بل إن عددا من أنصار الجبهة وقياداتها لا يجدون حرجا في انتقاد مسارها بأشد مما يكتبه ويصرح به ألد أعدائها.

لقد كان تأسيس الجبهة حدثا مفاجئا [2] لم تعدّ له الحركة الإسلامية في الجزائر بكل أطيافها ولم تخطّط له ولم تتوقعه بتلك السرعة والحدّة والشدة التي رافقته ولا الانتشار والتأثير الذي تلاه.

إن مسار الجبهة كان حافلا بالعطاء والبذل والتحدّيات والإنجازات، وبالإخفاقات والنكسات والأخطاء والتسرّع وسوء التخطيط. ولقد كانت حدّة الصراع وشدته وتتابع الأحداث ومكر السلطة وكيد المخابرات[3] وسرعة التأسيس وقصر المدة بينه وبين الانقلاب وحلّ الحزب[4] وعوامل أخرى مؤثرة بلا شك في عدم تمكن الجبهة من تنظيم صفوفها وضبط استراتيجيتها وتدارك أخطائها وترتيب علاقاتها واستثمار نجاحاتها وتصفية وتطهير مؤسساتها من الانتهازيين والباحثين عن المناصب والمكاسب وعملاء المخابرات، وأنا هنا أحاول تفسير ما حدث لا تبريره.

ومما يجدر أن يعلمه القارئ أن فترة رئاسة عبد القادر حشاني رحمه الله للجبهة بعد اعتقال شيوخ الجبهة إثر الإضراب السياسي الشهير وبعد انعقاد مؤتمر الوفاء بباتنة[6] كانت مختلفة عما قبلها بشكل واضح جدّا، وظهرت أمارات حسن التنظيم والمأسسة وبدأ استدراك الأخطاء وتغيير نبرة ومحتوى الخطاب، ولكن الأحداث كانت تتسارع وتتلاحق بشكل جعل من الصعب على الجبهة برغم هذا الوعي والأسلوب الجديدين أن ترابط على كل الثغور وتسدّ كل الثغرات التي كانت مفتوحة أمامها.

---

(1) سيستخدم اختصاراً كلمة "الجبهة".

(2) أعلِن عن تأسيس الجبهة بتاريخ 1989/02/18 واعتمدت قانونيا بتاريخ1989/09/06

(3) حول ما يتعلّق باختراق المخابرات للجبهة ثم لأنوية العمل الجهادي بعد ذلك يرجى مراجعة: محمد سمراوي، الإسلاميون والعسكر، سنوات الدم في الجزائر ، ترجمة: عومرية سلطاني، دار تنوير للنشر والإعلام، الطبعة الأولى2015 . مع ملاحظة أن الكتاب فيه قدر من التضخيم لدور المخابرات ومبالغات ولكنه يبقى من أهمّ المراجع حول أساليب المخابرات في الاختراق والتوظيف والتحكّم في الحركات السياسية والجهادية.

(4) حلّت الجبهة بقرار قضائي يوم 1992/03/04فكانت مدّة وجودها كلها عامين ونصفا.

(5) بدأ يوم 1991/05/25 وانتهى يوم1991/06/07 وكان سببه الرئيس المطالبة بتغيير قانون الانتخابات وتقسيم الدوائر الانتخابية الذي كانت الجبهة تعده مفصلا ليضمن فوز الحزب الحاكم.

(6) هو مؤتمر انعقد بتاريخ25و26يوليو 1991 بولاية باتنة، من أجل إعادة هيكلة وتنظيم الحزب وترميم ما أصابه بعد الإضراب السياسي واعتقال الشيخين كان من نتائجه تجميد عضوية المشكوك فيهم في المكتب الوطني ومجلس الشورى وانتخاب المهندس عبد القادر حشاني رئيسا للجبهة.

الفصل الأول

هل كانت تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ ناجحة أم فاشلة؟

إن هذا الفصل ليس سردا تاريخيا يراعي تسلسل الأحداث؛ وإنما هو إضاءات على مسار حزب كبير تركت تفاعلاتُه مع أصدقائه وخصومه وأعدائه ومواقفُه وخياراتُه أثرها العميق جدا والخطير على تاريخ الجزائر المعاصر بعد 1988 إلى يوم الناس هذا.

ولقد آثرت أن أبدأ الفصل بما أراه - ويراه كثير من الدارسين والمتابعين الذين عايشوا الأحداث وتتبعوا تسلسلها - أخطاء وثغرات أدّت باجتماعها واستغلال الأعداء لها وغفلة الجبهة عن سدّها وتداركها في الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب إلى إصابتها في مقتل. ثمّ سوف أثنّي بما أراه نجاحا وإنجازات للجبهة، لأنهي الفصل بخلاصات تفيد العاملين للإسلام وتوسّع مداركهم وتفتح لهم آفاق التبصّر والاعتبار؛ حتى لا نلدغ من الجحر نفسه مرتين بل مرّات ولا نكرّر الأخطاء بسذاجة أو استدراج أو غباء.

ولست أزعم أن القراء - من الجزائريين خاصّة - سيوافقونني في كل ما سطرته في الفصل، لأن أحداثاً ومواقف كثيرة حدثت في تلك السنوات الثلاث ما زالت في منطقة ظلّ بل ظلام دامس، وشهادات المشاركين في صناعة الأحداث يومئذ ما تزال شحيحة، وأرشيف الجبهة والإعلام والأمن والجيش ما يزال غير متاح بشكل عمليّ وعلميّ للباحثين والمؤرخين، وجراحات ما حدث في العشرية الحمراء [1] لم تندمل بعدُ، وهناك تبعات قضائية وأمنية وسياسية واجتماعية لكثير من الحقائق لو تمّ كشفها، والذين لهم علاقة بها ما زالوا أحياء يتربصون أو مكلومين يبحثون عن الحقيقة.

وإنني إذ أذكر الأخطاء والثغرات ومواضع الخلل فإنني أؤكّد أن بعضها لم يكن خطأ أو انحرافا في حدّ ذاته، وإنما كان الخطأ في عدم تأطيره وترشيده والتحكم فيه، وبعضها الآخر كانت أخطاء صغيرة في بداياتها ولكن الغفلة عن معالجتها والاستهانة بآثارها هي ما جعلها تكبر لتصبح من مَقاتل الجبهة.

ولقد كانت أجهزة الاستخبارات جاهزة منذ البداية لإسقاط الجبهة واختراق قياداتها

(1) العشرية الحمراء: مصطلح يطلقه الجزائريون على الفترة الممتدة من نهايات عام1991إلى بدايات عام2000 بسبب ما حدث فيه من قتل ومجازر وتنكيل واختطاف.

وقواعدها والتحكم في مسارها، فجاءت هذه الأخطاء مبرّرا وأداة استخدمتها هذه الأجهزة وضخّمتها وتسرّبت من خلالها.

فالجبهة إذن لم تكن حزبا سياسيا إسلاميا أُسِّس ليكون ذراعا لجماعة دعوية، ولعله من أجل ذلك تحفّظت وتوجّست منه كل الجماعات والتيارات الإسلامية يومها ولم تعلن عن تأييدها ودعمها الرسمي للجبهة.

كانت الجبهة على مستوى قيادتها الوطنية ومكاتبها الولائية وحتى البلدية خليطا من كل الجماعات والتيارات والأطياف، فقد كان فيهم الإخوان المسلمون بشقيهم المحلي[1] والعالمي [1] وكان فيهم السلفيون الذين كان أكثرهم في العاصمة الجزائرية وضواحيها، والقطبيون ، ومن جماعة الدعوة والتبليغ على قلتهم، وكان فيهم عدد معتبر ممن ليس له انتماء تنظيمي بل كانوا متدينين وكثير منهم كانوا أعضاء في حزب جبهة التحرير الوطني قبل أحداث أكتوبر 88، وآخرون فرادى لا يعرف لهم انتماء.

ولعل الجماعة الوحيدة التي لم يشارك أحد منها في تأسيس الجبهة على مستوى القيادة هي جماعة البناء الحضاري [4] وإن كان الشيخ محمد السعيد حضر لقاء مسجد السنة الشهير الذي كان بمثابة إعلان غير رسمي عن تأسيس الجبهة ولكن حضوره كان من أجل تأخير الإعلان والتريث في التأسيس ورغبة في توسيع المشورة وإشراك رابطة الدعوة الإسلامية في الأمر [5] لقد كانت (السرعة) في تأسيس الجبهة - والتي يعتبرها كثير من رموز ودارسي الحركة الإسلامية عجلة وتسرّعا كانت له نتائج وخيمة لاحقا - و(عدم التجانس) بين المؤسسين للجبهة على المستويين الوطني والولائي - بسبب اختلاف محاضنهم التربوية ومشاربهم الفكرية وانتماءاتهم التنظيمية السابقة للجبهة - هما أهمّ وأخطر سببين أدّيا بعدُ إلى سلسلة من المواقف والخيارات تركت أثرها العميق والخطير على الجبهة وعلى الجزائر كلها.

(1) ممثّلا في ما يسمّى في الجزائر بجماعة الشرق أو الإخوان المحلّيون، التي يرأسهــا الشيخ عبد الله جاب الله وهي حركــة إسلامية تأسست أواسط عقد السبعينيات وتركّز نشاطها الأكبر في منطقة الشرق الجزائريّ.

(2) ممثّلا في جماعة الإخوان المسلمين التي كان يرأسها الشيخ محفوظ نحناح رحمه الله.

(3) تيّار دعوي تربوي كان حضوره طاغيا في جامعات الغرب الجزائري بوهران وتيهرت خاصّة ولم يتّخذ شكلا تنظيميا هرميا مثل بقية الجماعات برغم وجود أسماء ورموز وقيادات تؤطره وتتولّى إدارته بأسلوب مرن لا يتقيّد بالهياكل التنظيمية الصلبة.

(4) أو جماعة مسجد الجامعة المركزية، والذين كانوا قريبين من فكر وأطروحات الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ومتأثـرين بها وبأدبيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي أقدم الجماعة الإسلامية وجودا إذ تأسست في نهاية الستينيات وعلى الأرجح عام 1969وترأسهــا بعد ذلك محمد بوجلخة ثم الشيخ محمد السعيد رحمه الله.

(5) رابطة الدعوة الإسلامية : تأسست بعد أحداث أكتوبر 1988 وترأسها الشيخ أحمد سحنون أحد رجالات جمعيــة العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت تهدف إلى جمع شمل الدعاة والحركات الإسلامية تحت مظلّة واحدة وبعث الدعوة الإسلامية وتنظيمها والتنسيق بين مكوناتها وحماية مكتسباتها.

إن الجبهة تأسست في ظروف وبيئة لم تعرف أي تجربة سياسية منظمة للحركة الإسلامية منذ الاستقلال، وكل ما كان قبل تأسيسها إنما هو مبادرات وعمل دعوي تربوي تمثّل في أرقى مظاهره في ندوات فكرية ومخيمات تربوية وتنظيمات دعوية كان أكثرها تنظيما فيما أعلم حركة الإخوان المسلمين تليها جماعة الشرق والبناء الحضاري. وبهذا فقد نسجت الجبهة على غير نموذج ولا تجربة سابقة، وهو أمر بقدر ما كان ذا أثر سلبي باعتباره يحرم الحزب الجديد من رصيد وتراكم التجارب والخبرات فإنه كان ذا أثر إيجابي؛ إذ حرّر قيادته ومناضليه من أسر التقليد واستنساخ التجارب ومكّنها من اقتحام مساحات جديدة بلا تهيّب ولا وجَل ولا توقّع خسارة ونكسات تكون قد تعرضت لمثلها تجارب سابقة.

لقد كان الانتشار السريع والتوسع الكاسح والاحتشاد الشعبي مع الجبهة انخراطا في صفوفها وتأييدا لها وحضورا في تجمعاتها ومسيراتها أمرا فاجأ حتى قيادة الجبهة، التي لم تكن تمتلك من الكوادر ولا الخطط ولا الموارد ما يمكّنها من تأطير كل هذه الحشود وترشيد حركتها ورفع وعيها والتحكم في ردود أفعالها، وقد فسّر ذلك عدد من كتبوا وتحدثوا عن هذا الأمر بخلوّ الساحة من أي مشروع سياسي إسلامي منافس[1]، وفسره آخرون بأنه كان نوعا من الرفض والغضب والعقاب والسخط على السلطة القائمة ومؤسسات الدولة المرتبطة بها، بينما فسره آخرون بأنه كان نتيجة خطاب الجبهة العاطفي الذي يستخدم مصطلحات الإيمان والكفر والإسلام والشريعة والجنة والنار مما ولّد تماهيا بين الإسلام والجبهة في عقول ومشاعر الجزائريين الذين احتشدوا خلف الجبهة بحيث أصبحت مناصرتها مرادفة لنصرة الدين نفسه، وآخرون أرجعوا سبب ذلك إلى الوعود التي كان يقدمها قادة الجبهة وخطباؤها بالرفاه والكرامة والحرية ومحاسبة الفاسدين ومعاقبة المجرمين وتحقيق العدل بعد إقامة الدولة الإسلامية وتحكيم الشريعة، وهما المصطلحان اللذان طرقا سمع الجزائريين لأول مرة بقوة وتركيز وكثافة، وبعضهم جعل السبب كاريزما الشيخين عباسي وعلي بن حاج وعددا من قيادات الجبهة في ولايات الوطن الأخرى.

(1) لم يكن يومئذ قد تأسس أي حزب إسلامي، إذا كانت حركة الإخوان المسلمين بشقيها المحلي والعالمي ترفضان تأسيس أحزاب إسلامية ولم تبادرا إلى ذلك إلا بعد الفوز الكاسح الذي حقّقته الجبهة الإسلامية للإنقاذ في انتخابات المجالس البلدية والولائية.

قد تكون هذه العوامل مجتمعة هي السبب في هذا الانتشار والتوسع والاحتشاد الذي بلغ كل قرية نائية في الأرياف ودَشْرة [1] معزولة بين الجبال، وقد تكون هناك أسباب أخرى غيرها، وربما يكون من المجازفة تقديم أحدها على الآخر، وما يزال مجال البحث مفتوحا غير مطروق بطريقة علمية منهجية يقوم بها علماء السياسة والنفس والاجتماع بناء على الأرقام والإحصائيات والتقارير الموثوقة.

ويحسن في هذا السياق أن نذكر أن من مظاهر هذا الانتشار هو الحضور الكبير للعنصر النسوي والشباب -الطلابي خاصة- والنقابي في قواعد الجبهة الشعبية ممثلا في الرابطة الإسلامية للطلبة [2] التي اكتسحت الجامعات والنقابة الإسلامية للعمل [3]، وفي دور الجبهة في الحشد النسوي للمسيرة المليونية النسائية في العاصمة [4] التي دعت إليها رابطة الدعوة الإسلامية بقيادة الشيخ أحمد سحنون رحمه الله احتجاجا على محاولات تغيير قانون الأسرة المستمد من الشريعة الإسلامية.

كانت مسيرات وتجمعات الجبهة أسبوعية في جميع شوارع وملاعب المدن الكبرى وعواصم الولايات وحتى البلديات أحيانا، وكانت الشعارات والهتافات التي ترفع مزعجة ومخيفة بل مرعبة لكثير من الأطراف والعصب في السلطة ومؤسسات الدولة وبعض الأحزاب ذات التوجّه اليساري خاصة. ولم تكن هذه الشعارات في الغالب الأعم مخططا لها ولا مدروسة الآثار النفسية والإعلامية والمآلات السياسية، بل كانت وليدة اللحظة ونتيجة الانفعالات والحماسة والإعجاب بالكثرة، وكان يكفي أن يرفع أحد الشباب عقيرته بشعار أو هتاف فإذا الجماهير تردده بحماسة واندفاع [5] ولأن قيادة الجبهة وجهازها الإعلامي كانا منشغلين ومستغرقين بالكلية في تجمعات ومسيرات لا تتوقف؛ فقد كان من شبه المستحيل أن يتمّ التفكير في هذا الأمر ومحاولة ضبطه وترشيده، وهو ما لم يحدث حتى وقع الانقلاب. ولأن أطرافا كثيرة في السلطة ومؤسسات الدولة وعلى رأسها قيادة الجيش وأجهزة الأمن كانت ترى نفسها معنية مباشرة بهذه الشعارات فقد زاد ذلك من خوفها وعدائها الموجود أصلا للجبهة ومشروعها والعزم على توقيفه وإفشاله بأي طريقة، ووجدت فيه أحد المبررات لسلوكها القمعي لاحقا.

(1) و تجمع على مداشر، كلمة جزائرية تعني القرية الصغيرة أو تجمع عدد من السكان ممن تربطهم في الغالب علاقة نسب وانتماء إلى نفس القبيلة.
(2) تأسست في ربيع 1990 ، في أحد مساجد العاصمة، وكنت أحد المشاركين في لقاء التأسيس بإشراف الأستاذ غ-سيد أحمد.

ولم يكن الأمر مقتصرا على شعارات وهتافات الأنصار والجماهير، فحتى خطابات وكلمات القادة والخطباء في تجمعات ومسيرات الجبهة كانت تفتقد في كثير من الأحيان التحضير الجيد والتنسيق والهدوء والتحفظ الذي يقتضيه الحديث باسم حزب كبير مؤهل لأن يحكم بلدا مهما مترامي الأطراف مثل الجزائر يقع على مرمى حجر من أوروبا. وكان المتحدثون والخطباء كثيرا ما ينفعلون ويستجيبون لضغط الجماهير وهتافاتها وكانت هذه الصيحات المرتجلة والعفوية في التجمعات والمسيرات كثيرا ما تكون مادة دسمة في وسائل الإعلام للتحريض على الجبهة وتشويهها واتهامها بالعنف والتطرف والغلو وتأليب قطاعات واسعة من الشعب، حتى تنفضّ أو تخاف وتتوجّس من الجبهة، ولم يكن الأمر مقتصرا على الأعداء والخصوم بل كان عدد من القيادات والدعاة على المستوى الوطني والولائي غير راضين عن مثل هذه الخطابات وينتقدونها ويطالبون بالتخفيف من حدّتها والتحفظ في إطلاقها خاصّة وأن عددا منها كان يتناول تلميحا وتصريحا جماعات وجهات وشخصيات إسلامية أو وطنية كان يمكن جدّا تجنّب مهاجمتها وتحييدها عوضا عن دفعها إلى ردود أفعال ومواقف دفاعية، خاصة وعداؤها أو خصومتها للجبهة لم تكن مبدئية عقدية حتى وإن شابها نزق وتصريحات وتموقع كانت الجبهة تراه طعنة في ظهرها و استفزازا واصطفافا مع السلطة ومؤسساتها.

أحداث وقناعات ومواقف كثيرة كانت تتشكل أيضا في الأحياء الشعبية والولايات الداخلية والمناطق البعيدة عن المركز، ولم تكن قيادة الجبهة تجد من الوقت والموارد والوسائل أو تمتلك من التخطيط ما يمكّنها من متابعته ومراقبته وترشيده والتحكم فيه، بل حتى السماع به والانتباه إليه أحيانا، فقد كانت جماعات صغيرة من ثلاثة إلى خمسة أشخاص أو أكثر تتجمّع بشكل عفوي مرتجل وبقناعات أحيانا أو دفع وتحريض جهات ما لتقوم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضييق على المتبرجات والسكارى وغيرها من المنكرات، ولم يكن هذا الأمر ظاهرة عامة منتشرة ولم تكن بتوجيه من الجبهة ولكنه كان يصدر عن منتسبين إلى الجبهة وتحسب تصرفاتهم عليها وكان الإعلام يطير بها كل مطار،

(3) تأسست في صيف 1990 وفرضت نفسها بقوة في ظرف سنة واحـــدة حتى وإن كـــان قصر المدة لم يسمح لها بالانتشار في المـــؤسســـات الاقتصادية الحساسة مثل سوناطراك وسونلغاز وقطاع المناجم.

(4) الخميس 23 ، جمادى الأولي 1410 هـ الموافق ل 21 ديسمبر 1989.

(5) مثل: الجهاد.. الجهاد / لا ميثاق لا دستور، قال الله قال الرسول / دولة إسلامية بلا انتخاب / خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سيعود / لا نقاش لا كلام.. حتى يسقط النظام / ستموت ستموت.. يا طاغوت يا طاغوت.

ويصور للقراء أنها تحدث في كل مدينة وحيّ، ويرفقها بالإشاعات وصور الكاريكاتير ويرسّخ في الأذهان أن أعضاء الجبهة أعداء للحريات الشخصية ومتسلطون وعدوانيون. ومن مظاهر التفلّت وعدم قدرة الجبهة على تأطير الجماهير والشباب منهم خاصة انتشار أزياء ومظاهر لم يألفها الشعب الجزائري وليست من أعرافه ولا تقاليده الاجتماعية، فقد انتشر الزيّ الأفغاني (البنجاب) والطاقية الأفغانية وإطالة الشعر واكتحال العيون والعمامة والعصابة السوداء والسترات التي كان يلبسها المجاهدون الأفغان. وكان الشباب الذين يلبسون هذا الزيّ يؤطّرون التجمعات والمسيرات في كثير من الأحيان وتلتقط صورهم كاميرات الإعلاميين الجزائريين والأجانب وتظهرها بشكل فاقع صادم، وبرغم أن هذا الأمر يبدو جزئيا وغير مهمّ؛ ولكن الذين عاشوا تلك الفترة بكل أحداثها وزخمها يدركون ويتذكرون جيدا أن تأثيرها في لا وعي الجماهير لم يكن هيّنا على الإطلاق، خاصة أن الزي الأفغاني كان مرتبطا بشكل وثيق بفكرة الجهاد والعمل المسلّح والتمرّد على النظام.

ظاهرة الزي الأفغاني تقودنا إلى موضوع آخر خطير، وهو أن نشاط الجبهة وفوزها الساحق في انتخابات المجالس البلدية والولائية وقوة حضورها الشعبي في الشارع من خلال المسيرات والتجمعات والإضراب السياسي الشهير، ترافقت مع بداية عودة (الأفغان الجزائريين) إلى الجزائر فرادى وجماعات. وهؤلاء لم يكونوا حين رجعوا على رأي وموقف واحد، وإنما كان منهم من انخرط في الجبهة تنظيميا، ومنهم من تعاطف معها وكان يحضر فعالياتها السياسية، ومنهم من كان متعاطفا بتحفظ وحذر، وآخرون كانوا يرفضون خيار المشاركة السياسية ويعتبرونه انحرافا ومزلقا عقديا، ويعلنون ذلك بصراحة ووضوح، وكان شريط أبي مصعب السوري بعنوان: (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) الذي يتحدث فيه عن تجربة الجبهة بانتقاد وتهجّم رائجا يومئذ، ولكن أولئك مع ذلك كانوا يتوقعون - في يقين - صداما وشيكا بين السلطة والجبهة ويعدّون أنفسهم ويخططون لانتهاز فرصته وإعلان الجهاد، ولقد كانت هذه النيّات معلنة ولكن الجبهة على مستوى القيادة تعاملت مع الأمر بكثير من اللامبالاة والغموض، فلم ترفضها وتتبرّأ منها، ولم تتبنّها وتحتوِ أصحابها، وكانت الخطابات والخطب تتحدث عن الجهاد بشكل غامض يؤوّله كل طرف بما يناسبه، بينما لم يرافق هذه الخطابات تخطيط ولا استشراف ولا إعداد، وقد نجح الأفغان الجزائريون في إقناع عدد معتبر من الشباب المنتسب للجبهة بأطروحات الجهاد

وترويج قناعاتهم وأدبيات الجهاد في جوّ من الحماسة والاستقطاب الشديد وفي ظروف كان الجهاد الأفغاني قد حقق فيها انتصارات كبيرة توّجت بانسحاب الاتحاد السوفييتي مهزوما مدحورا، وبعد الأثر النفسي العاطفي والشحنة الإيمانية التي خلّفها مقتل الشيخ عبد الله عزام رحمه الله.

هذا مع الانتباه إلى أن المخابرات كانت قد اخترقت عددا من أنوية الجهاديين الأفغان في وقت مبكّر حتى قبل الانقلاب. وهنا أيضا كان الإعلام حاضرا بقوة لنقل وتضخيم الخطابات والمواقف الصغيرة والمنعزلة المتفرّقة واستغلالها بشكل مدروس وممنهج ومُغرِض.

الفصل الثاني

خطاب الجبهة الإسلامية للإنقاذ وأداؤها الميداني

لقد كان انتصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ (ج إ إ) في انتخابات المجالس البلدية والولائية كاسحا، وقد فاجأ هذا الفوز الساحق الجبهة كما فاجأ أعداءها، وكما فاجأها ذلك الالتفاف والاحتشاد الشعبي غير المسبوق في الحراك السياسي الجزائري منذ الاستقلال.

البلديات الإسلاميّة:

لم يكن تسيير البلديات سهلا على الإطلاق، فقد كانت تعيش حالة مزرية من الإفلاس والتسيّب والفوضى والفساد وعدم الفعالية، وكان النظام يدرك ذلك جيّدا فهو من صنع هذا الفساد الذي كان يسيّره ويشرف عليه جهازه الإداريّ المرتبط بجهاز الأمن العسكري يومئذ ارتباطا عضويا.

ثم تقدّم النظام خطوة فقام قبل الانتخابات البلدية التي كان يتوقّع فيها انتصارا محدودا للجبهة بسحب كل الصلاحيات المهمة من رؤساء البلديات، ولم يبقِ لهم إلا وظائف بسيطة جدّا تجعل رؤساء البلديات في موقع العاجز عن تقديم أي خدمة للشعب أو تحسين لظروفه المعيشية.

سوف أتحدث لاحقا عن الطريقة التي تعامل بها منتخبو الجبهة مع هذا الوضع الجديد، ولكنني أركّز في بداية هذا الجزء على قضية تصلح مثالا لضعف التخطيط والتحكّم في أداء المنتخبين فضلا عن غيرهم، وكانت في فترة من فترات الصراع بين الجبهة والنظام سببا لاستقطاب سياسي وإعلاميّ كبير استغلّه النظام عبر إعلامه في التحريض على الجبهة واتهامها بالتطرف ومخالفة القوانين ومحاولة فرض الأمر الواقع، وهو قيام المجالس البلدية التابعة للجبهة بنزع لافتات : (من الشعب وإلى الشعب) ووضع لافتات كُتب عليها : (البلدية الإسلامية).

لم يكن الأمر في الحقيقة يستدعي ذلك، ولم يكن لهذا الشعار أي معنى، فالبلدية كانت تقوم بمهام تنفيذيّة بحتة ذات علاقة بالتسيير الإداريّ ولم تكن في موقع الحكم بالشريعة أو تحكيم الإسلام لترفع هذه اللافتات، ولم تكن هذه اللافتات لتشفع لرئيس بلدية فاشل

في تسيير بلديته وغير قادر على فعل أي شيء يخدم به من انتخبوا عليه. مع ما يوحيه **هذا الشعار أن البلديات التي لم تنتخب على الجبهة ليست إسلامية.**

وهذا بالضبط ما اعتبره إعلام السلطة تكفيرا لمن لم ينتخب على الجبهة، وكانت محاولة نزع هذه اللافتات بعد الإضراب السياسي سببا في أحداث ومصادمات بين أجهزة الأمن والعسكر وأنصار الجبهة، وتسببت في توتّر كبير لم تكن تهدئته بالأمر السهل، واستنزف جهدا كبيرا من قيادة الجبهة على جميع المستويات كان الأجدر أن يُبذل في قضايا أهمّ وأخطر وأكبر أثرا في الصراع يومئذ، رغم أنّ قرار تعليق هذه اللافتات لم يتمّ اتّخاذه على مستوى مجلس الشورى وإنما كان بحسب الشيخ كمال قمازي (رئيس المجلس الشعبي لمدينة العاصمة الكبرى) اجتهادا من بعض المجالس البلدية ولكنه انتشر وعمّ[1].

وإن كانت بعض البلديات لم تعلّق هذه اللافتات، وهذا الاجتهاد نفسه يدلّ على عفوية وارتجال ما كان لهما أن يكونا في أمر بمثل هذه الأهميّة.

إنّ الشعور بالقوة ووهم الغلبة الذي تبعثه في النّفس كثرة الأنصار والحشود بمئات الآلاف، في التجمعات والمسيرات دون رؤية ولا خطّة ولا قدرة حقيقيّة على التأطير والترشيد السياسيين والتحكّم في ردود أفعال وانفعالات.. هذه الحشود من البشر كان أحد مقاتل الجبهة.

الخصوم من داخل البيت الإسلاميّ:

كانت خطابات قيادات الجبهة على المستوى الوطني والمحلّي تحفل بقدر لا تخطئه عين المتابع يومها من الاستصغار واللامبالاة بشأن بقيّة الأطياف والشخصيّات الإسلاميّة، فقد رفضت الجبهة التحالف الذي اقترحه جاب اللّه ولم تبرّر رفضها بأسباب سياسيّة بقدر ما كانت المبرّرات فقهية بحتة في مقالات نشرها الشيخ علي بن حاج [2]، بينما استخدم الشيخ عباسي مدني تعبير الفيل ويقصد به الجبهة ووصف النملة ويقصد به بقية الأحزاب الإسلامية (النهضة وحماس). كما كان الاتّهام بالخيانة أو التواطؤ مع النّظام أو الضعف السياسيّ أو الخذلان شائعا ومنتشرا في كثير من خطابات الجبهة على المستوى الشعبي القاعدي تصريحا وفي إعلام الجبهة وخطابها الرسميّ إشارة وتلميحا.

---

(1) ذكر ذلك الشيخ كمال قمازي في حواره مع محمد يعقوبي صحفيّ. الشروق،عدد 29 جانفي 2013.

(2) رسالة فصل التخالف في قضية التحالف، الشيخ أبو عبد الفتاح علي بن حاج، جريدة المنقذ لسان حال الجبهة في عدد رقم 27 بتاريخ15 ربيع الأول 1411

بلا شكّ لم يكن موقف الأحزاب والهيئات الإسلامية سليما ولا خاليا من التحيّز والحسد للجبهة على شعبيتها وإنجازاتها السياسيّة؛ بل كان فيه قدر واضح من الخذلان وسوء التقدير للموقف السياسيّ برمّته؛ فقد كان الإخوان العالميّون برئاسة نحناح والمحلّيون برئاسة جاب الله يرفضون تأسيس أحزاب سياسية إسلامية بحجج ومبرّرات كثيرة، ولكنهم مباشرة بعد فوز الجبهة الساحق سارعوا إلى تأسيس أحزاب بحجج ومبرّرات كثيرة أيضا.

مما شكّل تشويشا والتباسا لدى الجماهير المؤيدة والمتعاطفة مع التيّار الإسلامي، ولكن الجبهة كانت في وضع تكالبت فيه عليها كل القوى السياسيّة العلمانيّة واليسارية والوطنيّة تآمرا وكيدا وتشويها وتحريضا ودعوة إلى إسقاطها، وهو الوضع الذي كان يحتاج من الجبهة تفهّما وأناة وسعيا لاحتواء بقيّة الإسلاميين وعدم استعدائهم وإبقاء أواصر المودّة ممتدّة ومتينة وتوسيع شبكة العلاقات داخل الطيف الإسلاميّ واستثمارها إلى أقصى حدّ ممكن مثلما فعل التيار العلمانيّ واليساريّ بكفاءة ونجاح.

لقد كان الموقف متشنّجا بين الجبهة وخصومها داخل التيّار الإسلامي، وكان سوء الظن وتغليب الاتهام والأحكام المسبقة هو السائد، بينما كانت الساحة تسعهم جميعا ولكنّه غياب الرؤية السياسيّة وفقدان بوصلة الصراع في خريطة معقّدة ملغّمة ترسم خطوطها المخابرات وتشرف على ضبط إحداثياتها مخابر الصراع الفكريّ وخبراؤه، وكانت الضحيّة هو المشروع الإسلامي كلّه بين مشرّد وقتيل وسجين ومهزوم ومنسحب من أرض المعركة ومنقلب على عقبيه ومنبطح أمام جبروت العدوّ وقسوته وإجرامه.

الخطاب والأداء الميداني.. الغموض الالتباس:

ولقد كانت خطب الشيخ علي بن حاج بقدر ما تحمل من الحماسة والتحفيز على البذل والعطاء وإحياء معانٍ غائبة كتحكيم الشريعة والولاء والبراء وتبنّي قضايا الأمة في فلسطين والعراق وغيرها؛ بقدر ما كان يكتنفها غموض مقلِق حين يتحدّث الشيخ عن الجهاد والديموقراطيّة وشؤون الدولة والحكم؛ فلا يفهم المتلقّي هل يتحدّث الشيخ علي بن حاج عن مآلات مشروع الجبهة وأبعاده الاستراتيجية أم يتحدّث عمّا تعتزم الجبهة تطبيقه عند فوزها وتسلّمها الحكم؟ وهل الجبهة قد هيّأت فعلا أدوات وآليات وتصورات ومشاريع جاهزة لما تتحدّث عنه قياداتها من مستقبل مشرق للجزائر وشعبها؟ وكان الإعلام دائما يستثمر وبخبث واحترافيّة هذا الغموض والضبابيّة لمزيد من التشكيك في الجبهة

ومشروعها كلّه، وكانت الجبهة في غمرة النّصر والالتفاف الشعبي حولها لا تكلّف نفسها عناء الردّ ولا التوضيح إلا قليلا، ولا ترى نفسها ملزمة بالردّ على من تصفهم بالأعداء وأكثرهم حقّا أعداء، ولكن عددا من الأسئلة وقدرا من الحيرة والغبش كان يشكو منه أنصارها أنفسهم والمتعاطفون معها والقريبون من طرحها.

وقد كان حديث الشيخ عباسي عن إقامة الدولة الإسلامية في شتاء 1991 حلما جميلا يداعب خيالات الحالمين، ولكن الأسئلة حول مضمونه والخطّة التي وُضِعت لذلك والتحدّيات في طريق هذه الدولة وتحالفاتها وبرامجها وشكل الدولة كلّه ومصير ملايين المعارضين للجبهة وبرنامجها وأهدافها وعلى رأسها الدولة الإسلامية.. كانت أسئلة ثقيلة وضاغطة، وجدت جوابها الواقعي في أَسْر الشيخين عباسي وعلي بن حاج قبل شتاء 1991 ثمّ في الانقلاب الذي دمّر حتى مؤسّسات الدولة العلمانيّة القائمة - أو كاد - فضلا عن السماح بقيام دولة إسلاميّة.

أمّا حديث خطباء الجبهة رسميا وشعبيا عن الديموقراطيّة والجهاد فقد كان أشدّ غموضا والتباسا وارتباكا وخلطا بين ما هو شرعيّ وما هو سياسيّ، وبين ما هو واجب اللحظة وما هو من المآلات ويأخذ حكم النهايات، وهل هو تهديد وابتزاز أو أنّ الديموقراطيّة كانت سوف تُلغى حقّا بكل مقتضياتها ومخرجاتها السياسية والاجتماعيّة ويُعلن الجهاد ضدّ من يقف في طريق الجبهة؟

حرب الخليج الأولى: الاستعراض والاستفزاز

وهذا الخطاب ترتّب عنه سلوك سياسيّ ومواقف؛ لعلّ أبرزها كان المسيرة الشعبيّة المندّدة بضرب العراق من طرف أمريكا وحلفائها يومئذ، والمطالبة بفتح الأبواب للجزائريّين من أجل الجهاد نصرة للشعب العراقيّ، وكان يقود المسيرة يومئذ قادة الجبهة وعلى رأسهم الشيخان عباسي وعلي بن حاج الذي كان يلبس زيّا عسكريا.

المسيرة استقبلها قائد الجيش يومها الجنيرال خالد نزّار في مقرّ وزارة الدفاع، وكان الامتعاض والرفض لسلوك الشيخ علي بن حاج بلبسه لزيّ عسكري رمزيّ تحكمه قواعد وقوانين باديا في التصريحات الرسميّة وتعليقات الصحافة، التي اعتبرته استفزازا وتحدّيا وشكلا من أشكال التمرّد على السلطة وامتهانا للعسكر وهيبتهم.

ثمّ تلا هذه المسيرة فتح التسجيل في قوائم الراغبين في الجهاد بالعراق ثم الشروع في فتح معسكرات لتدريب هؤلاء في الملاعب والقاعات الكبرى، ولم يكن الأمر في حقيقته يتعلّق بتدريب محترف عسكري وأمني، وإنما كان شكلا من أشكال استعراض القوّة وتخويف الخصوم واكتساب أنصار جدد، فلم يكن الأمر يزيد على تدريبات أوليّة وبسيطة على بعض الفنون القتالية الرياضيّة. وقد كان استغلال الجبهة للملاعب والقاعات البلدية تحدّيا صارخا للسلطة والإدارة المركزيّة، كما كان سفر الشيخين عباسي وبن حاج إلى الأردنّ والسعوديّة والعراق في رحلات تتعلّق بالوساطة في حرب الخليج، ولقاؤهما لعدد من الرؤساء والوزراء تجاوزا لا يمكن أن يقبل به النظام الجزائريّ، الذي أسرّها في نفسه وأضافها لقائمة غير قصيرة من الأحداث والمواقف التي برر بها الانقلاب لاحقا، وتسويق فكرة أن الجبهة حزب انقلابيّ لم يكن يراعي القوانين والأعراف السياسيّة ولا يعترف بالتعدّدية والتداول على السلطة وأنّه يتبنّى العنف في فرض قناعاته. االشيخ علي بن حاج مرتديا لباسا عسكريا مع قيادات الجبهة في مسيرة نصرة العراق.

وهنا أيضا كان الاغترار بالكثرة والحشود البشريّة والالتفاف الشعبيّ حول الجبهة، وغياب الرؤية والاستراتيجيّة، سببا لكلّ هذه الأحداث التي دفعت خصومها وأعداءها في الداخل والخارج للوقوف صفّا واحدا في وجه وصولها إلى السلطة بأي ثمن، ولو كان الانقلاب والكفر بالديموقراطيّة نفسها وقتل مئات الآلاف من الجزائريّين.

لقد كان غريبا حقّا ألّا يتفطّن قادة الجبهة أن سلوكاتهم ومواقفهم السياسية وطريقة إدارتهم للصراع - بصرف النّظر عن فعاليته من عدمها- كانت ستدفع السلطة والأحزاب العلمانيّة واليساريّة والنقابات والعسكر وميليشيا الإعلام وطابور فرنسا الخامس - الذي كان في أوج هيجانه وتنسيقه مع الإدارة الفرنسية في تلك الفترة - إلى الذهاب بعيدا في ردّة فعلهم، وكان غريبا ألّا يكون لدى الجبهة أيّ خطط وبدائل جاهزة لمثل ذلك، بل كانت كلّ الدلائل والقرائن تشير إلى طمأنينة الجبهة وقياداتها وإيمانها بتحقيق النّصر قريبا جدّا وأنّ الطريق إلى البرلمان والحكومة ثمّ إلى الرئاسة كان سالكا لا يتهدّده شيء.

استعداء واستفزاز العسكر:

كانت خطابات الجبهة تتهجّم بشكل سافر على الجيش وتتّهم ضبّاطه بالفساد والعمالة والخيانة، وتتوعّدهم بالعقاب والمحاسبة مباشرة بعد وصولها إلى السلطة. وقد كان الضبّاط

المسمَّوْن ضبّاط فرنسا ومن يدور في فلكهم ووقع في أحابيلهم حقّا فاسدين وعملاء وخونة، وقد بيّنت الأحداث ذلك بما لا يدع مجالا للشكّ. ولكن هل كانت الجبهة تملك فعلا أن تحاسب هؤلاء وتعاقبهم؟ هل كان الضبّاط المتعاطفون مع الجبهة أو المتصالحون مع المرجعية المتمثلة في الإسلام والعربيّة والانتماء الحضاري للأمّة قادرين أن يكونوا بديلا لهؤلاء الفاسدين والعملاء؟ هل كان عددهم كافيا؟ هل كانوا قريبين من مراكز القرار ومواقع التأثير المفصليّة في الجيش؟ هل كانوا ينسّقون مع بعضهم ويعدّون البدائل والخطط؟ بل هل كانوا يعرفون بعضهم أصلا؟ ثمّ قبل ذلك هل كان لدى الجبهة خطّة واقعيّة للتعامل مع العسكر وتعقيدات وتشابك العلاقات والمصالح والولاءات داخله؟

لقد اتّضح بعد الانقلاب أنّ الأمر كان خطابا مجرّدا من كلّ أسباب القوّة، وأنّ هؤلاء الضبّاط أنفسهم الذين تهجمت عليهم وهددتهم الجبهة كانوا هم سبب استئصالها، وكانوا أكثر من قيادتها دهاء وتخطيطا وأخذا للصراع بجدّية وتمكّنا من أسباب النصر والغلبة، ولو اعتمد ذلك على دعم أجنبيّ ومكر وخبث استخباراتيّ.

لقد كانت الجبهة تتعامل مع العسكر بسذاجة وسطحيّة للأسف الشديد. كانت تدفعهم بضراوة واستفزاز لحرب معها، لم تعدّ لها قطعة سلاح ولا طلقة رصاص ولا تمرّدا شعبيا ولا عصيانا مدنيّا ولا تحالفات قويّة ولا دعما أجنبيّا ولا خطّة أمنيّة. كأنّ التهديد والوعيد وحدهما كانا كافيين لردع القتلة والمجرمين أو هروبهم من المواجهة أو انسحابهم من المشهد!

لم يكن العسكر ليسمحوا للجبهة بالمرور حتى لو كان خطابها أكثر عقلانيّة وهدوءا وانضباطا بالأعراف السياسية؛ ولكن المشكلة تكمن أن الجبهة كانت تستفزّ أعداءها وتقرع طبول الحرب في وقت لا تفكّر فيه بالحرب ولا تعدّ لها عدّتها، فكان الأقرب للمنطق أن يكون خطاب الجبهة وشعاراتها مناسبا لإمكانياتها ومواردها وألّا تنجرّ لمساحات من الصراع العنيف جدّا، بينما هي غافلة تماما عن تبعات الحرب التي أوقدتْ الخطابات والشعارات من طرفي الصراع نارها [1].

(1) حاول عبد القادر حشاني ومجلس الشورى المنبثق عن مؤتمر الوفاء بباتنة استدراك الوضع، ولكن العسكر والمخابرات كانوا قد اتّخذوا قرار تعفين الوضع والذهاب نحو الصدام واستئصال الجبهة من المشهد السياسي والاجتماعيّ، وقد تحدّث العقيد محمد سمرواي عن ذلك بإسهاب في كتابه : الإسلاميّون والعسكر.

لقد كان سلوك العسكر متوقّعا ومفهوما جدّا وربّما مبرّرا بشكل أو بآخر من وجهة نظر كثيرين، لكن الغريب والغامض وغير المفهوم ولا المتوقّع هو ردّ فعل الجبهة؛ أوّلا عند اعتقال قياداتها وفضّ اعتصامات الإضراب السياسيّ، وثانيا عند حدوث الانقلاب، رغم أنّ الأوّل كان منذرا بالثاني ومؤشّرا قويّا على إمكانيّة حدوثه.

الدولة العميقة:

كانت تجربة رؤساء بلديات الجبهة ثريّة وصعبة، وكان من أشكال ثرائها أنّها هيّأت للجبهة كحزب سياسيّ يعتمد سياسة المغالبة والمطالبة فرصة للتعرّف على شبكة العلاقات والمصالح والولاءات داخل الإدارة الجزائريّة في مفصلين من أهمّ مفاصلهما: البلدية والولاية، مع ما تتيحه رئاسة المجلسين البلدي والولائيّ من تعامل مع الأمن والولاة ورؤساء الدوائر والمصالح الحيوية في المؤسّسات الكبرى كسونلغاز، ومخالطة الأعيان والأثرياء ومسؤولي الأحزاب السياسية وشيوخ الزوايا الصوفية والنقابات والمنظمات الشعبية؛ كالشبيبة والنساء والمجاهدين وغيرهم، وحتى الإعلاميين في المدن الكبرى كالعاصمة ووهران وقسنطينة، وكانت هذه الأطراف هي التي تشكّل الدولة العميقة في الجزائر منذ الاستقلال تقريبا على تفاوت في أهمّيتها وقوّة تأثير كلّ واحدة منها.

لقد كان مفهوم الدولة العميقة غير مطروق بنفس الوضوح والقوّة التي نتحدّث بها اليوم عنه، ولكن شبكة العلاقات والمصالح والولاءات كان الحديث عنها شائعا، وكانت الجبهة تعاني من آثارها بشدّة، وكان أعضاء المجالس البلدية والولائية التابعين للجبهة يعانون من تواطؤها ومكرها وتعطيلها للمشاريع وترويجها للشائعات وتسريبها للمعلومات أشدّ العناء، غير أنّ ذلك كلّه لم يجعل الجبهة تنتبه لخطورة (الدولة العميقة)، وتستثمر في تناقضاتها أو تحاول اختراقها أو تضع خطّة لفهم تركيبتها وتفكيك بنيتها نظريا على الأقلّ من أجل تحييدها أو إضعافها أو التحسّب لما يمكن أن تفعله في ظروف استثنائية مثل التي حدثت بعد الانقلاب.

كانت مكونات الدولة العميقة المذكورة آنفا لا تعني في الغالب للجبهة إلا جزرا منعزلة عن بعضها، ولم تكن الجبهة تدرك خطورة شبكة العلاقات والمصالح والولاءات، ولا تضع خططها أصلا وفق هذا المنظور، مع أنّها كانت تتعامل بحذر وأحيانا بذكاء مع كلّ مكوّن على حدة ولكنها كانت تفتقد (التفكير المنظوميّ) الذي يجعلها تتعامل مع (المُفرَد) باعتباره جزءا

من (منظومة) وهو ما يعطي للتعامل معه قوّة وتأثيرا ويجعل الجبهة في موقع قوة وتقدّم مقارنة مع خصومها وأعدائها.

إنّني إذ أتحدّث عن هذه الثغرات والأخطاء والمقاتل في أداء الجبهة أؤكّد بكلّ وضوح أنني أتحدّث عن الخطاب والأداء الرسميين وعن المواقف المفصليّة وعن دوائر صناعة القرار والتأثير في مؤسسات الجبهة، وليس عن الأفراد من أعضائها وهم كثير جدّا الذين كان فيهم من الأذكياء والدهاة وذوي النباهة والفراسة السياسيّة والقدرة على الاستشراف والكفاءة العلميّة ما يؤهلهم لأداء أدوار خطيرة، كانت ستقفز بأداء الجبهة خطوات عملاقة إلى الأمام لو أتيحت لهم الفرصة، وقد كان الفريق الذي تولّى القيادة بعد مؤتمر الوفاء بباتنة مثالا واضحا على ذلك، وكان على المستوى الولائي والبلديّ رجال وشباب بالمستوى نفسه، ولكن الأمور كانت تسير بسرعة كبيرة لا تسمح بالتوقّف وسط ذلك الجوّ المشحون والمتوتّر لإعادة القراءة والتقييم وضبط البوصلة ومراجعة الخطاب وتصحيح الأداء وإعادة النظر في قائمة الأصدقاء والحلفاء والخصوم والأعداء، وهو ملمح سأشير إليه لاحقاً بإذن الله.

كما أنّني أذكّر بأنّ مسيرة الجبهة لم تكن كلها أخطاء وهزائم ونكسات وسوء تقدير ولكنّني تعمّدت تقديم النقد على قسوته وشدّته، وتأخير الكتابة عن الإنجازات والنجاح والمساحات التي حقّقت فيها الجبهة تقدّما لم تحرزه الحركات السياسيّة الإسلاميّة قبلها.

الفصل الثالث

في ميدان الإنجاز

بعد ما ذكرناه من الأخطاء والثغرات ومواضع القصور والخلل في خطاب الجبهة الإسلامية للإنقاذ وأدائها الميداني وقبل ذلك في ظروف وملابسات نشأتها وتأسيسها؛ ألم يكن للجبهة أي إنجاز يستحقّ ان يُسجّل في مآثرها ويذكرها به التاريخ كمحطة فارقة في تاريخ الجزائر المعاصر؟

لقد آثرتُ أن يكون الجزآن السابقان مسردا لكل ما يذكره الأصدقاء والأعداء من أخطاء الجبهة بحيث تندرج كل التفاصيل والجزئيات تحت ما سبق ذكره، وحتى لا يسارع أحد باتّهامي أنني أقوم بعملية تلبيس على القارئ بذكر المحاسن والإنجازات أوّلا لتصبح المساوئ والأخطاء بعد ذلك شيئا هامشيّا لا قيمة له ولا تأثير، ولأخالف العادة الغالبة في تقييم الحركات والأحزاب والجماعات التي يسبق مدحها والثناء عليها وتمجيدها نقدها وذكر أخطائها.

والآن.. ماذا قدّمت الجبهة للإسلام في الجزائر وللشعب الجزائري المسلم وللأداء السياسيّ كلّه في الفترة القصيرة جدّا والممتدّة من ربيع 1989 إلى انقلاب جانفي 1992؟

أولا: أعيد التذكير بخصوصيّة الجبهة الإسلاميّة في كونها الحزب الإسلاميّ الأوّل وربما الوحيد الذي لم يتأسس باعتباره ذراعا سياسية لجماعة دعوية أو تيّار حركيّ، وإنما كان مفتوحا على كل التيّارات التي كانت تنشط وتتحرّك في الساحة يومها، على تفاوت في تجاوب أعضاء هذه التيارات مع مبادرة تأسيس حزب إسلاميّ وفي عدد المنخرطين فيه تأسيسا أو انتماء لاحقا. وهذه الخاصّية على ما يبدو من بساطتها لأوّل وهلة ولكنّها كانت وما زالت تشكّل عبئا على كلّ الأحزاب الإسلاميّة وتسلبها استقلالية القرار فيها لصالح الجماعة ومؤسساتها - أيّا كانت هذه الجماعة - وتحرمها من كفاءات ومواهب توجد في غيرها وتُضعِف من التنوّع البشريّ والفكريّ داخلها ومن القدرة على الابتكار والاستجابة للتحدّيات. كما أنّ هذه الخاصّية تجعلنا دائما نفكّر أنّ الأمر ممكن بعيدا عن الجماعات القديمة المتكلّسة أو الحديثة فاقدة الرؤية والبوصلة وأنّ ارتباط العمل السياسيّ بالجماعات ليس ضرورة سياسيّة ولا سنّة كونيّة ولا قدرا مقدورا.

ثانيا: الخطاب الواضح والصريح فيما يتعلّق بتحكيم الشريعة وإقامة الدولة الإسلامية، وإن كنت قد أشرتُ في الجزء السابق من هذه السلسلة أنّ الأمر لم يكن بالوضوح نفسه فيما يتعلّق بالأدوات والآليات والإمكانات والموارد البشرية وغيرها ذات العلاقة بهذا الهدف المشروع والنّبيل، ولكن وضوح الخطاب كان من القوّة والصراحة والحضور والتكرار والتأكيد عليه في كلّ أدبيات الجبهة الإسلامية وإصداراتها الإعلامية وخطاباتها السياسيّة في التجمعات أنْ أصبح هذا المطلب لأوّل مرّة حديث العامّ والخاصّ والصغير والكبير وموضع تساؤل أو ترحاب أو استنكار الإعلاميّين والسياسيين، ولم يعد سرّا يُستخفى به أو هدفا يستحي طالبه من الإعلان عنه والجهر به، وكشف هذا الوضوح فيما يتعلّق بمصطلحي (تطبيق الشريعة) و إقامة (الدولة الإسلاميّة) أنّ الشعوب المسلمة تمتلك من الرصيد التاريخي والقبول النفسي والاستعداد الاجتماعيّ والتعاطي مع هذه المصطلحات ولو بقدر من الغموض ما يؤهّلها لأن تتبنّاه وتدافع عنه بشكل من الاشكال وتجعله أولويّة وخيارا عندما تمتلك حرّيتها، وهو أمر اثبتته التجارب اللاحقة في المغرب وتونس ومصر والأردن واليمن وغيرها.

وتجدر الإشارة هنا أنّه بعد الانقلاب وحلّ الجبهة الإسلاميّة خفت هذا المطلب وتوارى من على المنابر المسجدية والإعلامية وغاب من أدبيات الأحزاب ذات الخلفية الإسلاميّة وأصبح لا يسمعه أحد في خطاب سياسيّ ولا ديباجة نصّ تأسيسيّ ومارست هذه الأحزاب نوعا من الإرهاب الإعلامي والنفسي حول هذه المصطلحات والتعامل معها ومع من يرفعها وينادي بها بنوع من الاحتقار والاستعلاء والاتّهام بالسذاجة والسطحية وأحيانا كثيرة بالغلوّ والتطرّف بشكل فيه قدر كبير من التعميم الجائر والسعي إلى نفي ما تراه تهمة، و هنا استثني خطاب الشيخ عبد الله جاب الله فهو في هذه النقطة أكثر وضوحا وحسما.

ثالثا: الانتشار الواسع جدّا في كل عواصم الولايات والبلديات والقرى والمداشر وحتى البوادي والأرياف، وهو انتشار كنت أشرتُ إلى التحدّيات التي وضع الجبهة الإسلاميّة أمامها وأنّها لم تكن تمتلك موارد وأدوات التحكّم فيه وتأطيره وترشيده بالشكل المناسب للصراع الذي كانت تخوضه يومئذ، وأنّه ما زال يحتاج دراسة وتحليلا ومقاربات أكثر حياديّة وإنصافا بعيدا عن اتّهام الشعب بالجهل والسطحية أو اتّهام خطاب الجبهة بالغوغائية أو اعتبار هذا الانتشار والالتفاف الشعبي الرهيب حول الجبهة مجرّد سلوك عقابيّ ضدّ تصرّفات وظلم مؤسسات الحزب الواحد : جبهة التحرير الوطنيّ.

ولقد فاجأ هذا الانتشار حتى مؤسسي الجبهة وقياداتها، ووجدوا صعوبة كبيرة في التعامل معه، ولكن هذه ملحوظات منفكّة عن رصد الظاهرة نفسها ولا تؤثّر في صحّتها ومصداقيتها التي يقرّ بها أشدّ أعداء الجبهة الإسلاميّة ضراوة وحقدا.

وهذا الانتشار لم يكن نخبويّا أبدا، بل كان أبعد ما يكون عن ذلك، واحتضن خطاب الجبهة وأطروحاتها السياسيّة طيف واسع من الشباب والطلبة والنّساء وعامّة الشعب والفلّاحين وسكان الرّيف والأساتذة والمثقفين، ولم يكن هؤلاء كلّهم على موجة واحدة من جميع ما يطرحه خطاب الجبهة، فقد كان فيهم المندفع المشتعل حماسة وفيه المتأنّي الملاحظ وفيهم المتحفّظ والرافض لبعض ما يقال ويُفعَل والناقد الجريء وعلى جميع المستويات من أدناها على المستوى البلدي إلى أعلاها على مستوى المكتب الوطني وجلس الشورى.

إلّا أنّ الذي كان يجمع هؤلاء جميعا ويصهرهم هو انبعاث الروح الإسلامية والشعور بالعزّة وتلمّس اقتراب عهد التحرّر واسترجاع الكرامة والأمل في نهضة شاملة تكون الجزائر قاطرتها وهو أيضا ذلك الإجماع حول مطلب تحكيم الشريعة وإقامة الدولة الإسلاميّة الذي كان غامضا كما اشرنا في الجزأين السابقين حتى عند قيادات الجبهة، ولم يكن مطلوبا من الجماهير وهي تعبّر عن تأييدها والتفافها حول مشروع الجبهة أن تدخل في نقاشات فكريّة وفقهية واجتهادات سياسيّة حول شكل الدولة الإسلاميّة أو طرق إنفاذ أحكام الشريعة فإنما يُطلب منها تكثير السواد والنّصرة والتصويت في الانتخابات والدعم المادّي والاجتماعيّ وهو ما قدّمته الجماهير بصدق وعطاء منقطع النّظير.

صحيح أنّ الحركة الإسلاميّة بمختلف توجّهاتها كانت قد هيّأت النفوس والعقول لتقبّل خطاب الجبهة أو أيّ خطاب آخر يستمدّ من الإسلام، وصحيح أن هناك أسبابا أخرى لم يكن للجبهة يد في توفيرها لحدوث هذا الانتشار والالتفاف والقبول، ولكن الذي يهمّ هنا هو أنّ الجبهة كانت الأسبق والأقدر على استثمار هذا المُعْطى، وأنّها لم تتردّد في الذهاب به بعيدا والاستفادة منه وأنّ غيرها لم يستطع ذلك، فالجبهة في النّهاية حزب سياسيّ يهدف إلى اكتساح الساحة والفوز والوصول إلى السلطة وكل الوسائل المشروعة سبيل إلى ذلك، وليس من المعقول ولا المقبول أن تترك الجبهة الجماهير بحجّة أن الجماعة الفلانيّة والتيّار العلّاني هو من قام بتوعيتها وتقريبها من المشروع الإسلامي وليست الجبهة هي من فعلت ذلك.

رابعا: استطاعت الجبهة بنجاح كبير صناعة رموز سياسيّة ودعويّة، اكتسحت الساحة برغم بساطة وسائل الإعلام آنذاك وأصبح هؤلاء الرموز موضع اهتمام الإعلاميين في الداخل وتتهافت عليهم وسائل الإعلام الأجنبيّة من فضائيات وصحف عالميّة ويقدّمون التصريحات المؤثّرة وتشتغل بتصريحاتهم وحواراتهم الأحزاب ودوائر السلطة .

ولم يكن هؤلاء الرموز على المستوى الوطني فحسب، بل كان في كل ولاية رموزها الذين يخطبون ويسوّقون لخطاب الجبهة وتتأثّر بهم الجماهير وتتعلّق بهم .

ولم يكن كلّ أولئك من صناعة الجبهة، فبعضهم كان يمتلك حضورا وكاريزما في منطقته قبل تأسيس الجبهة ولكنّ قوة خطاب الجبهة ووضوحه زاد من تألّقه وحضوره وأعطاه دفعة أقوى في التأثير، وبعضهم - خاصّة من أبناء الصحوة الإسلاميّة - كان يمتلك كفاءة الخطابة والأداء السياسيّ والذكاء الاجتماعيّ والقدرة على التأثير على نطاق واسع ولكن محدوديّة العمل الإسلاميّ واقتصاره على الحلقات ودروس الوعظ وانكفاءه على نفسه قبل أحداث أكتوبر 1988 التعدّدية السياسيّة لم يتح لهم الفرصة المناسبة فكان انخراطهم لاحقا في الجبهة اكتشافا لهم وتدريبا وصقلا لمهاراتهم وإضافة لرصيد الجبهة.

كانت صناعة الرموز التي تتعلّق بها الجماهير وتتفاعل معها وتثق بها دائما نقطة ضعف عند كثير من الحركات الإسلامية وقلّما نجحت في ذلك لأنّ الذي يبرز الرموز ويسوّقها في الغالب ويظهر أثرها وذكاءها هو الإعلام وقد كان يومئذ كلّه في يد اليساريين وفلول المخابرات العسكرية. وهو ما يسوقنا إلى النقطة التالية.

خامسا: لم يكن الجزائريّون يعرفون إعلاما نهاية الثمانينيات إلا الإعلام الرسميّ متمثّلا في التلفزيون والصحف الحكوميّة، وبعض العناوين الجديدة مثل الخبر بالعربيّة El watan وLe matingو Liberte بالفرنسية . ولم تكن الفضائيات العربية يومئذ موجودة ما عدا قناة الأمبيسي التي لم تكن بالصيت والشهرة والتأثير الذي اكتسبته لاحقا، وكان بعض الجزائريّين يلتقطون بصعوبة القنوات الفضائية الفرنسية عن طريق الصحون اللاقطة الجماعيّة.

وفي ظلّ ذلك نجحت الجبهة الإسلاميّة في صناعة إعلام موازٍ وقويّ ومؤثّر تمثّل في أشرطة وتسجيلات الفيديو. فقد كانت توثّق لكلّ صغيرة وكبيرة من أنشطتها، ولا يحدث تجمّع أو مسيرة في أيّ مدينة كبرة أو ولاية داخليّة إلا تمّ تصويرها كاملة واستنساخ العشرات بل المئات منها وتوزيعها بيعا أو إهداء عبر كافّة مكاتب وفروع الجبهة عبر الوطن،

وكان المواطنون يتجمّعون في مقرّات الجبهة والمصلّيات الحرّة والساحات العامّة والمتاجر التابعة لأعضاء الجبهة وحتى في البيوت حيث تجتمع النساء ليتابعوا في حماسة مشاهد المسيرات وخطابات قيادات الجبهة في التجمّعات.

كما كانت سوق الكاسيت رائجة، حيث كانت خطب الجمعة خاصّة وبعض التجمعات الوطنيّة الكبرى تُسَجّل وتنسخ ليتناقلها الأعضاء والمحبّون ويتمّ من خلالها نقل وتسويق خطاب الجبهة وأهدافها.

وحين نتحدّث عن الفيديو أو الكاسيت فإنّ أيقونتهما كان الشيخ علي بن حاج، الذي عرف فيه الجزائريّون خطيبا وخطابا من نوع جديد لم يألفوه من قبل في المساجد ولا في الشأن السياسيّ، متمكّنا من أساليب الخطابة والإلقاء، جريئا مستحضرا للآيات والأحاديث، يحسن التعبير بالفصحى والعامّيّة، ويستخدم النّكتة ويزاوج بين خطاب الرحمة واللّين والدعوة والرّفق وخطاب الشدّة والعزّة والحزم والسياسة. لقد كان الشيخ علي بن حاج نموذجا متفرّدا يستحقّ الدراسة والتحليل وما زال، وكان كثير من الخطباء ورموز الجبهة الإسلامية الشباب يحاولون تقليده أو محاكاة أسلوبه فمنهم من ينجح ومنهم من لا يستطيع، ولكنّ الشيخ كان بلا منازع نجم الفيديو والكاسيت وكانت خطاباته تنفخ الروح في مئات الآلاف من انصار الجبهة ومحبّيها كما تخيف وترعب أعداءها وخصومها.

لقد استطاعت الجبهة الإسلامية بهذا الإعلام الموازي الذي كانت تسنده بقوّة وفعالية الجرائد الورقيّة مثل المنقذ والبلاغ وغيرهما أن تتجاوز الحصار المفروض عليها من طرف السلطة ومؤسساتها الإعلاميّة ومن طرف الإعلام الخاصّ الذي كان أكثره واقعا تحت هيمنة وتسلّط اليسار وفلول المخابرات، بل إن الجبهة استطاعت أن تكون بمواقفها ومن خلال إعلامها هي من يصنع الحدث ويبادر إلى الفعل ليسارع الآخرون إلى المتابعة وردّات الفعل، حتّى وإن كان الأمر ليس بهذا الإطلاق والتعميم. كما استطاعت الجبهة أن تحصّن أنصارها بشكل كبير من شبهات وتشكيك الإعلام المعادي لها، فمهما كانت قوّة الجريدة والصورة الثابتة فيها فإنّ مقاطع الفيديو الحيّة كانت أقوى وأشدّ منها تأثيرا بكثير، وكان هذا الأمر يغيظ أعداء الجبهة حتّى أنّ واحدا من أهداف المخابرات والعسكر وأجهزة الأمن بعد الانقلاب كان الحصول على هذه التسجيلات وتدميرها وإتلافها كلّية واعتبارها دليل إدانة وتورّط في الإرهاب مما دفع آلافا من أنصار الجبهة وعائلاتهم لإتلافها وبذلك ضاعت ثروة من الأرشيف

والأحداث والوقائع لا تُقدّر بثمن، وبعضها ما زال مدفونا ليوم النّاس هذا لا يدري أحد هل تلف أم لا يزال صالحا وبعضه نسي من دفنه أين خبّأه، وإن كان موقع يوتيوب قد حفظ بعض هذه المادّة التي أجزم يقينا ويجزم كلّ من عايش الأحداث أنّها لا تتجاوز 2%0 من المادّة المسجّلة خلال ثلاث سنوات.

سادسا: في مجتمع محافظ مثل المجتمع الجزائريّ لم يكن من السهل على المرأة أن يكون لها حضور بارز ومؤثّر ما عدا في الدوائر الرسميّة والمؤسسات التابعة للسلطة أو الجمعيّات التي يهيمن عليها اليساريّون، وقد كان أهمّ تجمّع نسويّ في الجزائر هو (الاتّحاد العامّ للنساء الجزائريّات) وكان اتّحادا بروتوكوليّا يتمّ إخراجه من الخزنة كلّما احتاجه النظام في مناسبات محدّدة وكانت سمعته سيّئة ولم يكن له أيّ تأثير. في مثل هذه البيئة استطاعت الجبهة الإسلاميّة أن تفسح للنساء الجزائريّات مساحة من العمل والفعاليّة والظهور والحضور أكبر من أيّ حزب إسلاميّ أو غير إسلاميّ يومها.

كان في كلّ مكتب بلدي وولائيّ فرع نسائيّ، وكانت هذه الفروع نشطة وفعّالة، ينخرط فيها عشرات أو مئات من النساء بحسب الكثافة السكّانية للحيّ أو المدينة، وكانت النّساء يشاركن في المسيرات ويحضرن التجمّعات يرافقن أزواجهنّ وأولادهنّ وإخوانهنّ في احترام كامل لهنّ.

وكانت درّة تاج المشاركة النسويّة هي الدور الذي قامت به الجبهة في التجنيد والحشد للمسيرة النسائيّة التي دعت إليها رابطة الدعوة الإسلاميّة برئاسة الشيخ أحمد سحنون رحمه الله بتاريخ الخميس 32 جمادى الأولى 0141هـ الموافق لـ 21 ديسمبر 1989 ، فقد وقع عبء التجنيد والحشد وضمان حضور نسويّ يكون رسالة قويّة جدّا ومؤثّرة إلى النظام والعلمانيّين المطالبين بتغيير قانون الاسرة والأحوال الشخصية واقعا على الجبهة الإسلاميّة، التي استطاعت عبر مكاتبها في الولايات حشد أكثر من نصف الحاضرات من كلّ الوطن وكنت شاهدا أن قافلة من الحافلات من ولاية تيارت وحدها كان فيها أكثر من 11 حافلة فضلا عن قوافل أخرى من الولاية نفسها وهي البعيدة عن العاصمة ب300 كلم.

وكان من أثر انفتاح الجبهة على الحضور النسائي وانتباهها لخطورته أن أعضاءها ومنخرطيها حتى في البلديات النائية والأرياف وهم المتشدّدون في كلّ ما يتعلّق بالمرأة اقتنعوا بإخراج نسائهم وبناتهم وأخواتهم للتصويت في الانتخابات البلدية والولائية

والتشريعيّة بقوّة رجّحت كفّة الجبهة وأعطتها أفضليّة، بينما كان هؤلاء يستنكفون حتى من سفر نسائهم إلى المدن والحواضر.

وكان السرّ وراء ذلك بسيطا جدّا، فقد اقتنع هؤلاء أنّ في خروج نسائهم للتصويت نصرة للدّين ومراغمة للفاسدين والمجرمين فهان عليهم ما كان مرّا وعسيرا من قبل.

وقد لجأت السلطة قبل التشريعيّات في قانون الانتخابات إلى رفض وكالة الرّجل عن أكثر من امرأة حتى تحرم النساء المتعاطفات مع الجبهة من التصويت لظنّها أنّهن لن يخرجن للتصويت في المناطق الداخلية التي كانت تشكّل الوعاء الانتخابيّ الأثقل، ولأنّ المشاركة في الانتخابات كانت تتطلّب استصدار بطاقة الهويّة المرفقة بصورة المرأة التي ظنّ النظام ومخابره يومها أنّ أكثر النساء وأولياءهنّ سيرفضنه سبب حساسيتهنّ من تصوير الرجال للنساء ومن الإجراءات الإداريّة التي تقتضي تدخّل الرجال في الصالح الإداريّة، ولكنّ الجبهة خاصة في التشريعيات استطاعت تجنيد عدد كبير جدّا من النّساء المصوّرات لتصوير النساء في بيوتهن في القرى والمداشر والأرياف وإعداد الملفّات الإداريّة وسرعة استخراجها حتى بدون حضور المرأة المعنيّة ببطاقة الهويّة، وهو أمر لم يكن يتوقّعه أعداء الجبهة وخيّاطو القوانين والتشريعات أبدا.

وكان من آثار الانخراط النسويّ الكبير في الجبهة أن انتشرت مظاهر الحجاب والجلباب والاستقامة في الشارع الجزائريّ، حتى أصبح التبرّج منحصرا في بعض الجامعات وأحياء المدن الكبرى المعروفة بميولها التغريبيّة، ولم يكن في الأمر إكراه ولا إلزام ولم تكن الجبهة تمتلك أصلا أدوات الإكراه والإلزام الماديّ، وإنّما كان أمرا هيّأه الله للمسلمات في الجزائر أراد به صلاحهنّ وخيرهنّ.

الفصل الرابع

العمل الطلابي والعمّالي والاجتماعي

كانت نقاط قوة الجبهة الإسلامية كثيرة، بعضها تمّ استثماره بشكل جيّد وإلى أبعد الحدود، وبعضها لم يحظ بالمتابعة والتوجيه لتكون نتائجه أفضل وأعمق.

الرابطة الإسلامية للطلبة

من القضايا التي تنبّهت لها الجبهة تأسيسها لـ(الرابطة الإسلاميّة للطلبة)، خريف عام 1990، بعد انتخابات المجالس البلدية والولائيّة. وقد كان حضور هذه الرابطة الطلابيّة قويّا ومؤثّرا وانتسب إليها آلاف من الطلبة، حتى ممّن لم يكونوا منخرطين في الجبهة سياسيّا. وقد كانت مطالب الرابطة مثل كل الاتّحادات الطلابية ذات علاقة مباشرة بحياة الطلبة ومشاغلهم الاجتماعية والمعيشية في الأحياء الجامعيّة وبقضاياهم التعليمية ي معاهدهم وكلّياتهم. ولم يكن حضور الرابطة بالقوة نفسها في كلّ الجامعات، فقد كان في بعضها أقوى من بعض بحسب نشاط وفعالية المنتسبين إليها. وكان غالبية الطلبة ومديري الجامعات والمعاهد يعلمون صلتها بالجبهة الإسلامية ولكنّ ذلك لم يكن مهمّا لأنّها كانت قدّمت وثائق اعتمادها إلى وزارة الداخليّة التي تثاقلت عن اعتماد الرابطة قانونيا حتى حدث الانقلاب عام 29 وأصبحت بذلك تنظيما غير قانوني يعاقب كلّ من ينتسب إليه أو ينشط من خلاله.

لقد كانت أبرز محطّة ظهر فيها أداء وفعالية الرابطة هي محطّة الإضراب السياسي، التي استطاع فيه الطلبة المنتسبون إليها تجنيد وحشد الطلبة وتعطيل الدراسة في الجامعات وتنظيم مسيرات داخل الأحياء والكلّيات والخروج في مسيرات من الجامعة إلى خارجها تكثيرا لسواد المضربين والمعتصمين والمشاركين في المسيرات.

لم يكن تنظيم الرابطة وهيكلتها قد تمّت بعد، ولم يكن نشاطها مركزيا، فقد كان للمنتسبين إليها في كلّ جامعة حرّية اتّخاذ ما يرونه من قرارات ومواقف، وقد أعجل الرابطة عن أمرها ما أعجل الجبهة من تسارع للأحداث وضغط سياسي وكثرة عددية في غياب رؤية

واضحة واستراتيجية للحركة والأداء، فلم يكن للرابطة قيادة وطنية معروفة ولا ناطق رسميّ يعبّر عن مواقفها ولا إصدارات مكتوبة ولم تعقد مؤتمرها التأسيسي، غير أنّها استفادت من الزخم السياسي العام ومن انتصارات الجبهة ومن تذمّر أكثر الطلبة من الاتّحادات الطلابية السابقة التي كان يسيطر عليها بشكل شبه كلي اليساريون والعلمانيّون. كما لم تولِ قيادة الجبهة أيّ اهتمام حقيقيّ بالرابطة من حيث التوجيه والمتابعة والدعم والتنظيم، وهو الأمر الذي حدث مع كلّ التنظيمات والهياكل التابعة للجبهة.

وبعد الانقلاب كان حنق أجهزة الأمن على الطلبة كبيرا، فنالهم حظّهم من المطاردات والتضييق والسجون والقتل، وقد التحق عدد كبير جدّا من الطلبة بالعمل المسلّح في الجبال والمدن، وقُتل منهم وسُجن الآلاف زيادة على من فرّوا إلى الخارج لاجئين.

لقد كان تأسيس تنظيم طلابي نقطة قوّة للجبهة، ولكنه إنجاز أضعفه الإهمال واللامبالاة من قيادة الجبهة وضعف الخبرة في العمل الطلابي عند الغالبية العظمة من منتسبي الرابطة وتسارع الأحداث بشكل حال دون رسم أي استراتيجية للرابطة يمكّنها من الاستجابة للتحدّيات الكبرى التي كانت تواجهها يومئذ الجزائر سياسيا وثقافيا واجتماعيا ثم أمنيّا وعسكريّا بعد ذلك، وكان غياب الرؤية والتخطيط سببا في ضرب الرابطة وتفكّكها بسرعة بعد الانقلاب وعدم استثمارها في أي حراك احتجاجي رافض للانقلاب أو داعم للأداء السياسيّ للجبهة بَعْدَه.

النقابة الإسلاميّة للعمل

وعلى منوال الرابطة الإسلاميّة للطلبة تمّ تأسيس (النقابة الإسلاميّة للعمل)، التي كانت النقابة الوحيدة المنافسة والمزاحمة للاتّحاد العام للعمّال الجزائريّين الذي كان ذراع السلطة في كلّ المؤسسات الاقتصاديّة في الجزائر. غير أنّ ما يميّز النقابة الإسلاميّة هو أنّ مؤسسيها كانوا ممّن لهم سابقة في العمل النقابي وخبرة في كواليسه، ممّا جعل أداءه أفضل وأبعد أثرا من أداء رابطة الطلبة.

وقد حظيت النقابة بدعم واضح من المكتب الوطني للجبهة بحكم أن عددا من الأعضاء مؤسسيها كانوا أعضاء في مكاتب الجبهة ومجالس شوراها وطنيا وولائيّا، و لأنّ تأثير النقابة كان - ربما - أوضح وأظهر من العمل الطلابي في تصوّر قيادة الجبهة.

وقد ظهرت فعالية النقابة الإسلاميّة كذلك في الإضراب السياسيّ، فقد ارتبط مفهوم الإضراب منذ نشأته وتطوّر أساليبه في الغرب بالنقابات العمّاليّة. واستطاعت النقابة تجنيد العمال للمشاركة في الإضراب والخروج في مسيرات ومظاهرات في فترة الإضراب، برغم تفاوت نسب المشاركة بين الولايات وبين المؤسسات الاقتصادية الكبرى والمدارس والثانويات. وهنا يجب أن نسجّل أنّ الجزائريّين لم يعرفوا منذ الاستقلال عملا نقابيا أو طلابيّا مستقلّا عن أذرع السلطة والحزب الواحد، وكانت النقابات والاتّحادات السلطويّة متجذّرة في كل المؤسسات والقطاعات، ممّا يجعل أداء النقابة الإسلامية متميّزا وهي النقابة التي لم يتجاوز عمرها بين التأسيس والإضراب سوى سنة واحدة.

وقد كان النظام يشعر بالقلق من تزايد عدد المنتسبين إلى النقابة الإسلاميّة و من حركية أعضائها وفعاليتهم ويخشى من تهميش وإقصاء الأذرع النقابية التي كان يرعاها ويدعمها. وشاركه القلق والخشية اليساريّون والعلمانيّون الذين كانوا ظاهريّا يعارضون النظام، فقد كانوا هم المسيطرين فعليّا على قيادة هذه الكيانات وكان ظهور أي منافس جديد يستمدّ من إيديولوجية وتصورات مخالفة لهم يعتبر تهديدا وجوديا لهم. وقد كان هؤلاء ومن خلفهم النظام يعبّرون عن هذا القلق والخشية عن طريق الجرائد والصحف والتلفزيون والإذاعة العموميين والتي كان نفوذ اليساريين والعلمانيين فيها شبه كلّي باختلاق الإشاعات وترويج التّهم والتشكيك في نسب المشاركين في الإضراب وأعداد المنتسبين للنقابة حتى لا يتوسّع تأثيرها وتستقطب مزيدا من الطبقة العاملة.

والنقابة الإسلامية للعمل هي النقابة الوحيدة التي تأسست لتنافس وتزاحم النقابات العمالية التي كان يسيطر عليها اليساريون، وقد تعرضت بعد الانقلاب إلى الحلّ ونال أعضاءها من الاغتيالات والسجن والتضييق ما نال كلّ المنتسبين إلى الجبهة الإسلامية وأذرعها وفروعها، ولم تتأسّس بعدها أيّ نقابة من منطلق إسلاميّ إلى يوم النّاس هذا، برغم انفتاح العمل النقابي والتعددية النقابية التي تشهدها الساحة العمّالية الجزائريّة إذا استثنينا النقابات الصغيرة المتخصصة مثل تنسيقية أساتذة التربية الإسلامية وغيرها.

العمل الخيريّ والاجتماعيّ

لم يقتصر نشاط الجبهة الإسلامية على العمل الطلابي والعمّالي بل انفتحت على العمل الخيريّ والاجتماعيّ الذي تمثّل خاصّة فيما يسمّيه الجزائريّون بـ(أسواق الرحمة) أو (الأسواق الإسلاميّة)، وهي أسواق شعبية صغيرة ومتوسّطة أشرفت عليها مكاتب الجبهة في عواصم

الولايات وبلدياتها الكبرى تُعرَض فيها الخضراوات والفواكه والموادّ الغذائية وأحيانا الألبسة بأسعار رخيصة جدّا تكسر كلّ منافسة، وكان القائمون عليها في الغالب شبابا متطوّعين أو يأخذ بعضهم أجرا زهيدا.
كانت أسواق الرحمة هذه شيئا جديدا على الجزائريّين لم يألفوا مثيلا له من قبل، وفرح بها واستفاد منها الفقراء والمحتاجون، وأحْيَت روح التكافل والتضامن بين الجزائريّين، وكسرت احتكار التجّار والمضاربين.

وكان موقف المزارعين والفلّاحين خاصّة موقفا جميلا ومعبّرا، فقد كانوا يبيعون منتجاتهم للمشرفين على هذه الأسواق بأسعار زهيدة أقلّ بكثير من تلك التي يبيعون بها للتجّار، بل كانوا أحيانا عند وفرة المنتوج يهبونها بلا مقابل ولا يسألون إلا الدعاء بالبركة.
وقد بلغ من نزول الأسعار ووفرة المعروض أن أصبح حتى الميسورون من الطبقة المتوسّطة وبعض الأغنياء يقتنون احتياجاتهم من هذه الأسواق.

ولم تسلم هذه المبادرة أو التجربة من اللمز والتشويه والتشكيك مثل كلّ المبادرات والمشاريع التي تكون وراءها الجبهة الإسلاميّة خاصّة والتيّار الإسلاميّ عموما.

فقد كان الإعلام يكرّر أن الجبهة تستغلّ موارد البلديّات من مقرّات وساحات عرض وشاحنات وسيّارات بلا مقابل، وأنّ الجبهة في مشاريعها تتلقّى دعما وتحيّزا من رؤساء المجالس البلدية والولائية المنتمين إليها، وأنّ البيع في هذه الأسواق يتمّ بصفة غير قانونيّة ومعفى من الضرائب وبدون سجلّات تجارية، وأنّ العمّال في هذه الأسواق غير مؤمّنين والسلع غير مراقبة ....إلخ.

بعض هذه الانتقادات صحيح وبعضها تافه وكذب، ولكن الفقراء والمحتاجين لم تكن تهمّهم هذه الإشاعات والاتّهامات بقدر ما كان يهمّهم قوت يومهم وما يسدّون به الرّمق، ولم يكن أعضاء الجبهة الإسلاميّة في الحقيقة يلقون بالا لهذه الاعتبارات وهم يرون مثل كلّ الجزائريّين الفساد المتفشّي في كلّ مؤسسات الدولة، ويعتبرون النظام وما يصدر عنه غير شرعيّ من الأساس، ولم يكلّفوا أنفسهم أصلا الردّ على ما تدّعيه الصحف والجرائد.

ورافق تجربة أسواق الرحمة مبادرات أخرى مثل المطاعم الخيريّة و سلّة رمضان وغيرها، وهي مبادرات أقبل المواطنون من كل الفئات على دعمها واحتضانها وتموينها.

ولئن كان الجزائريّون منذ سنة 2000 وما بعدها إلى يومنا هذا قد اعتادوا على مثل هذه

الأنشطة والمشاريع والمبادرات الخيريّة بحيث لا تكاد تخلو منها بلدية أو مدينة في الجزائر، فإنّها ما بين 1990 إلى 1992 كانت شيئا جديدا تماما على من عايشوا تلك الفترة، بحيث بقيت راسخة في أذهانهم ومشاعرهم سنوات بعد الانقلاب، زيادة على أنها كانت يومئذ مرتبطة بوضوح بمشروع سياسيّ يحاول تقديم نفسه كبديل للنظام القائم وليس مثلما يحدث اليوم وبرغم كل الخير والإحسان والفضل الذي تقدّمه فإنّها مشتتة لا يجمعها رابط ولا يضمّها مشروع ولا تقف وراءها رؤية ولا هدف، سوى سعي أصحابها للأجر والثواب وهو أمر محمود ومطلوب بلا شكّ أو أهداف أخرى لا علاقة لها بدين ولا نُبْل ولا أخلاق.

كان التنافس السياسيّ بين الجبهة الإسلاميّة وأعدائها شرسا وعنيفا، وكانت السلطة - ممثلة في حزبها الرئيسيّ : جبهة التحرير الوطني وأذرعها النقابية والمعارضة في شقّها اليساريّ/ اللائكيّ والإعلام الذي كان كلّه تقريبا تحت يد أعداء التيّار التغريبيّ - لا تتورّع عن استخدام أيّ وسيلة تخصم بها من رصيد الجبهة الإسلاميّة أو تحجّم من انتشارها أو تشوّهها أو تحوّل إنجازاتها إلى هزائم واتّهامات، وبرغم أن الجبهة كما ذكرنا في الجزء السابق كان لديها إعلامها الموازي والقويّ ولكنه كان موجّها بالأساس إلى أنصار الجبهة والمتعاطفين معها، أما الرأي العام فقد كان يصنعه ويؤثّر في توجّهاته الإعلام المعادي للجبهة ومشروعها.

ومن هنا لجأت الجبهة الإسلامية إلى (المساجد) كمنصّة بديلة عن إعلام مؤثّر ومباشر وجواريّ تفتقده. فقد كان خطباء الجبهة ودعاتها يروّجون لمشروعهم من على منابر المساجد، وسهّل الأمر على الجبهة أن عدا كبيرا من الأئمة والدعاة في كل الولايات انخرطوا في الجبهة وتبنّوا مشروعها وخطابها، بحيث لم تكن الجبهة في حاجة إلى استقدام خطباء ودعاة يقتحمون المساجد على كره من أئمتها، كما أن الجبهة بعد الفوز في انتخابات المجالس البلديّة والولائيّة ألزمت منتخبيها بتقديم عروض حال عن أنشطتهم ومشاريعهم وخدماتهم أمام المواطنين حتى تفكّ الحصار الإعلاميّ المضروب عليهم، فكانت هذه العروض تتمّ غالبا في المساجد وقبل صلوات الجمعة تحديدا، حيث كان الوافدون على المساجد يستمعون إلى أرقام وإحصاءات وتقييم لأداء المنتخبين في أسلوب جديد لم يعهدوه من قبل.

كما كانت الحملات الانتخابية يُدار جزء منها في المساجد، باستضافة دعاة وخطباء

يشرحون مشروع الجبهة وينافحون عنه ويدعون إليه ويحرّضون الناس على الالتفاف حوله. وكانت كثير من المسيرات الحاشدة تنطلق من المساجد، واثناء التجمعات الكبرى في العاصمة خاصّة كانت المساجد تفتح أبوابها لتأوي الوافدين من جهات الجزائر الأربع للراحة و المبيت أحيانا.

لم يكن كلّ الأئمة راضين بهذه الطريقة التي انتهجتها الجبهة الإسلاميّة في استخدام المساجد، وإذا كان كثير منهم قد انخرطوا في الجبهة فإنّ عددا معتبرا منهم كان يقبل بذلك إما مجاراة ومصانعة لأعضاء الجبهة في مدينته وحيّه أو خوفا من ردود أفعالهم وغضبهم التي قد تحول إلى سلوك عنيف بطريقة ما.

وما كان الإعلام الذي يمثل السلطة أو المعارضة ليفوّت هذه الفرصة من أجل أن يتّهم الجبهة ويشنّع عليها و يتحدّث عن استغلال الجبهة للمساجد وتسييسها وأن ذلك يعطيها أفضليّة في المنافسة مع خصومها ويمنح مشروعها وخطابها قداسة تُشعِر المواطن أن مخالفة الجبهة أو معارضتها مخالفة أو رفض للدّين .....إلخ.

لا شكّ أن الجبهة كما قلنا آنفا لم تكن تأبه كثيرا لاستنكار الإعلام والأحزاب والسلطة لكثير من تصرفاتها ومواقفها، ولا شكّ أيضا أن الشعب الجزائريّ في عمومه لم يكن يرى في استخدام الجبهة ودعاتها وسياسييها للمسجد خطرا كبيرا أو يلقى منهم معارضة أو رفضا إلا في حدود ضيّقة وغير معلنة في الغالب. ومع ذلك فإن المساجد كانت بالفعل مرتكزا قويا لانطلاق الجبهة في مشروعها ومنحها قوّة في التأثير وحضورا شعبيا كبيرا جدّا والتصاقا بالمواطنين ومعايشة لاهتماماتهم ومعرفة بأسئلتهم وقدرة على التفاعل معهم. لقد كانت الجبهة في الحقيقة تنطلق من منطلق براجماتي سياسي واضح، فما دامت السلطة وأعداؤها يمتلكون كلّ مواقع ووسائل التأثير والتواصل ويحتكرونها ويمنعون الجبهة من استخدامها ولو في حدّها الأدنى فإنّ الجبهة في المقابل تعطي لنفسها ومناضليها الحقّ في استخدام المسجد الذي لا يستطيع اليساريّون واللائكيّون ولوجه ولا يحسنون خطابه كما لا تستطيع السلطة استخدامه إلا على استحياء لأنّ أحداث أكتوبر ونشاط الجبهة وقبلها ومعها الحركة الإسلامية كانت قد وضعت الأئمة والخطباء المنتمين للسلطة والمتبنّين لخطابها في موقع ضعف واتّهام بالعمالة للنظام والاستفادة منه وكانت صورة أولئك الأئمة سيّئة في نظر أغلبيّة الجزائريّين الذين كاوا يطلقون عليهم وصف (أئمة

الحساب البريدي الجاري)، إضافة إلى أن الجبهة الإسلاميّة استطاعت استقطاب خيرة الأئمة والدعاة والشيوخ المعروفين والمؤثّرين في كل الولايات تقريبا وكان حضورهم ظاهرا جدّا في التجمّعات والمسيرات.

الفصل الخامس

الجبهة الإسلامية للإنقاذ.. تقييم وتقويم

كانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ واحدة من أكثر التجارب السياسية حيوية وتأثيرا في تاريخ الجزائر المعاصر بعد الاستقلال، فلم يعرف الجزائريون التعددية ولا الحرية السياسية ولا المنافسة النزيهة ولا تدافع المشاريع بشكل مكشوف وواضح وصريح مثلما حدث بعد أحداث 05أكتوبر 1988.

ثلاثة عقود مرّت منذ الاستقلال نشأ فيها جيل كامل تحت حكم الحزب الواحد والنمط الاشتراكي البئيس التقليدي الذي تحوّل قبيل أحداث أكتوبر إلى انفتاح رأسمالي فوضوي، كانت كافية في تراكم قدر كبير من الغضب والحرمان والبؤس السياسي والرغبة في الانعتاق والشعور بالتخلّف وبسطوة الاستبداد ممثلا يومها في الرعب من بطش الأمن العسكري(SM). ومن خلال الجبهة الإسلامية للإنقاذ تمكّن الجزائريّون المؤمنون بالمشروع الإسلاميّ من دخول ميدان الصراع والمزاحمة والتنافس وفق ما كانت تسمّيه أدبيات الجبهة بأسلوب (المطالبة والمغالبة).

وقد ذكرنا في الحلقات السابقة أنّ الذين انضمّوا إلى الجبهة الإسلامية لم يكونوا طيفا واحدا ولا نمطا سواء، فقد كانت الجبهة الإسلاميّة نموذجا شبيها بجبهة التحرير الوطني أيّام ثورة التحرير التي حاولت جمع كل التيارات السياسية المؤثرة تحت رايتها وإيجاد طريقة تسمح بأن تكون جميعها في خدمة هدف واحد كبير هو الاستقلال وتحرير الجزائر.

كان في الجبهة كثير جدا من أبناء الحركة الإسلامية الذين انضمّوا إليها قناعة بخطّها السياسيّ ومن كلّ الجماعات، وكان هؤلاء هم عمودها الفقريّ والمؤسسين لها والحاضرين في قياداتها الولائيّة والبلديّة، كما كان فيها المتديّنون من الجزائريين الذين وجدوا أنفسهم في الجبهة وعثروا على أمل كان يبدو لهم بعيد المنال، وكان فيها سكان المدن والقرى والأرياف والطلبة والعمال والأكاديميون والأئمة والدعاة وغيرهم من كلّ مكوّنات المجتمع الجزائريّ ممّا منح الجبهة قوّة سياسية وشعبية طاغية وسبّب لها أيضا مشكلة كبرى في

إدارة هذا التنوّع البشري وكثافته العدديّة وفتح للسلطة وأجهزتها الأمنية يومــها بابا للاختراق و توجيه الأحداث بل وصناعتها واستثمارها أحيانا.

الناقمون على الجبهة وخطّها وخطابها وأدائها إلى يوم النّاس هذا من الإسلاميين كثير، بعضهم يفعل ذلك لأنه يعتبر أن الجبهة سرقت جهود السابقين من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية والتربية والإعداد والتكوين، وبعضهم ينقم عليها تهوّرها واندفاعها، وبعضهم ما زال يتألّم لأن الجبهة وضعته على هامش الأحداث ولم يتحصّل على صوت واحد في أي استحقاق انتخابيّ معها، وآخرون شكّلت لهم الجبهة هاجسا وما تزال لأنّهم بعد انقلاب العسكر والتيار اليساري العلماني عليها اصطفّوا بطريقة أو بأخرى وبحجج أكثرها واهٍ داحض مع الانقلابيين و لازمتهم تهمة مباركة الانقلاب وانعدام الشرعية، وآخرون لم يستطيعوا منذ غياب الجبهة إخراج مسيرة أو تجمّع من بضعة آلاف تعبّر عن موقف رافض أو محتجّ على مواقف السلطة وخياراتها بينما يتذكّرون عشرات ومئات الآلاف الذين كانت الجبهة تدعوهم ببيان أو نداء واحد فيهبّون مستجيبين ملبّين، وبعضهم يرى تأسيس الجبهة منذ البداية خطّة نسجتها مخابر أجهزة الاستخبارات لكشف الحركة الإسلامية وضربها ضربة قاضية تأتي عليها.

لم يكن خطاب الجبهة ولا سلوكها السياسي ولا خياراتها الكبرى والتكتيكية فوق النقد أو تخلو من الضعف وانعدام الرؤية والبصيرة السياسية أحيانا بكلّ تأكيد، وقد ذكرنا من ذلك الكثير في الحلقتين الأوليين من هذه السلسلة، ولكن الجبهة كانت هي قدَر الجزائر والجزائريّين في سنواتها الثلاث من 1989أواخر إلى 1992، وكانت هي الثمرة التي أفرزتها مسيرة التاريخ وسيرورة الأحداث.

صديق الأستاذ مالك بن نبي الأستاذ الفيلسوف حمودة بن الساعي حين كان يرى مسيرات الجبهة تجوب شوارع مدينته بكلّ زخمها واندفاع الشباب وحماستهم وشعارات التحرر واستكمال الاستقلال وإقامة الدولة الإسلامية المرفوعة فيها كان يقول: (فرنسا وراء الستار).

وصدق رحمه الله، فما كان لفرنسا أن تغفل أو تبقى بعيدة عن ساحة تمور بالكراهية لها والرغبة في التحرر من نفوذها وهيمنتها في الجزائر وقد تشكّل تهديدا لها وهي على بعد سويعات عبر البحر وساعة وبضع دقائق بالطائرة ووجود ملايين من المهاجرين من الجزائريين على أرضها.

ثم دخلت الولايات المتّحدة الأمريكية على الخطّ بحذر وصمت وهدوء بعد حرب الخليج الأولى وموقف الجبهة الإسلامية منها، وكانت الكويت والمملكة السعودية على خط الولايات المتحدة نفسه، وشكّل هذا التوحّد في النظرة إلى الجبهة والموقف منها بين الولايات المتّحدة وفرنسا من جهة و الكويت والسعودية من جهة ثانية وخوف الأنظمة العربية من انتقال العدوى إليها وخاصة مصر وتونس وليبيا من جهة ثالثة؛ شكّل ذلك حلفا غير معلَن - يعمل فيه كلّ طرف وفق خطّته وتصوراته - هدفه منع الجبهة الإسلامية من تحقيق أيّ إنجاز سياسيّ والحيلولة دون وصولها إلى السلطة ومراكز القوّة والتأثير في أجهزة ومؤسسات الحكم، وهو الأمر الذي تفطّن له العسكر والمخابرات واستثمروه لاحقا في تبرير الانقلاب والبحث عن الحلفاء واستجداء الدعم و تفسير قسوة الإجراءات ودمويتها وقبل ذلك عمليات الاختراق والتوظيف وتلغيم الجبهة ومؤسساتها بالطريقة التي تحدثنا عن بعضها في مقالات سابقة.

واحدة من الأخطاء الكبرى للجبهة أنها كانت تصارع النظام كأنه بمعزل عن قوى الهيمنة في العالم، وكأنها بسقوطه ستكون في راحة من أمرها في الجزائر، بينما كشفت الأحداث بمجرد فوز الجبهة في التشريعيات اصطفاف فرنسا والولايات المتحدة في خندق واحد، وبدأت الآلة الإعلامية في التحرّك وبثّ الإشاعات وترويج الأكاذيب وسرد الأرقام المرعبة والتوقعات والاحتمالات الكارثية بعد استلام الجبهة الحكم في الجزائر، وظهرت قضيّة المفاعل النووي في عين وسّارة بولاية الجلفة جنوب الجزائر التي أثارها الإعلام الفرنسي ثم الغربي والأمريكي على أنّه مفاعل لأغراض عسكرية وأنّه يشكّل تهديدا للغرب ومن ثَمّ المطالبة بتفتيشه ومراقبته، واقتربت بوارج الأسطول السادس من المياه الإقليمية الجزائرية بشكل غير معهود ولا مسبوق، وبدا واضحا لكل مراقب أنّ الأمور تسير في اتّجاه التصعيد وأنّ الغرب وعلى رأسه فرنسا كانت تبحث عن منفّذ أو حليف أو عميل في الجزائر وداخل مؤسستي الجيش والاستخبارات بشكل خاصّ، أمّا المجتمع المدني الذي يسيطر عليه اليساريون واللائكيّون فقد كانت فرنسا أمسكت بزمامه منذ مدّة.

في خضمّ ذلك كلّه كانت الجبهة في وضع لا تُحسد عليه، وكانت الضغوط السياسية والأمنيّة والإعلاميّة عليها هائلة أفقدتها القدرة على اتّخاذ القرارات بسرعة وفعاليّة وكفاءة تناسب الموقف وتكافئه، مع غياب الرؤية السياسية والاستراتيجية المقابلة لكلّ

هذا الجهد المنسّق المتناغم الذي يبذله أعداؤها في الداخل والخارج، ومع تبعات اعتقال الشيخين عباسي وبن حاج والأحداث الأمنية التي عرفتها الجزائر على يد الأفغان العائدين أو الجماعات المسلّحة الصغيرة المخترقة أو المراقبة منذ البداية، ولم يستطع المكتب السياسي الجديد الذي كان يقوده حشّاني أن يفعل شيئا أكثر ممّا فعله، فالقرار بالانقلاب وسحق الجبهة وقتل واعتقال كلّ من له علاقة بها كان قد اتُّخذ من طرف ضباط الجيش والمخابرات بالتنسيق مع الاستخبارات والرئاسة الفرنسية وبمباركة ودعم منها، ثمّ انفلتت الأمور بالشكل الذي يعرفه الجميع.

هل كان في مقدور الجبهة أن تتجنّب ما وقع ؟

في رأيي أنّ الطريقة الوحيدة التي كانت ممكنة لتجنّب الانقلاب والمجازر وتحالف الأعداء هي ألّا تتأسّس الجبهة الإسلامية من الأساس، أمَا وقد تمّ تأسيسها فإنّ ما حدث كان سوف يحدث حتما، والأحداث بعد ذلك في أكثر من قطر عربيّ بعد ثورات الربيع العربي أثبتت ذلك بشكل من المستحيل تكذيبه أو إنكاره.

وكان يمكن للجبهة الإسلامية أن تتجنّب ما حدث بطريقة أخرى وهي أن يكون خطابها وبرنامجها السياسي وأداؤها في الساحة السياسيّة الجزائرية يومئذ فيه من الليونة والمهادنة والغموض والبراغماتية السياسية والقبول بالتنازلات بمستوى يجنّبها كلّ ما حدث ولكن في المقابل يجعلها حزبا ضعيفا غير مؤثّر ولا ذا حضور وثقل في الميدان ولا يستطيع أن يستقطب جموع الناقمين والغاضبين من الشباب خاصّة ومن بقيّة فئات الشعب ولا الساخطين والمتذمّرين من جماعاتهم وحركاتهم الإسلاميّة الذين وجدوا في الجبهة الإسلامية ما افتقدوه عندها. وإن كانت التجربة بعد الربيع العربي وقُبَيلَه بقليل قد أثبتت أيضا أن الليّنين والمتنازلين والمهادنين لم يسلموا من المكر والإقصاء والحرب عليهم بأقذر الأساليب وأحيانا من الانقلاب عليهم بطريقة لا تختلف عن الانقلاب على الجبهة إلا في كونها انقلابات كانت هذه الأحزاب والحركات تعرف نتائجها مسبقا وترضى بتبعاتها بحجة مصلحة الدولة والحفاظ على مؤسساتها ..وتلك قصّة أخرى.

لقد عانيتُ في هذه الكتاب من ندرة المراجع بل غيابها في بعض القضايا المطروحة فيها، وهي مشكلة شكا ويشكو منها كلّ من يريد الاقتراب من ملفّ الجبهة الإسلامية ودراسة تجربتها وتقييمها، فقادة الجبهة المؤسسون لم يكتبوا أو على الأقلّ لم ينشروا شيئا من

مذكّراتهم عن الأحداث، وما نُشر من حوارات في الصحف والقنوات قليل وغير كافٍ في دراسة ظاهرة مثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ، والشهادات المسجّلة شحيحة جدّا، وارتباط كثير من الأحداث بقضايا أمنية أو رجال التحقوا بالعمل المسلّح لاحقا زاد من حرج الشهود والكتّاب، وأرشيف الإذاعة والتلفزة المتعلّق بتلك المرحلة غير متاح على الشبكة العنكبوتية، ووثائق الجبهة منها ما أتلفه الأمن أثناء الاعتقالات ومنها ما أتلفه أعضاء الجبهة أو عائلاتهم خوفا من تهمة الانتماء للجبهة والسجن ومنها ما استولت عليه الأجهزة الأمنية وصادره القضاء وأصبح غير متاح وفي مكان لا يعلمه أحد، من أجل ذلك فإن هذه السلسلة جاءت وصفيّة أكثر منها تحليلية لأنّ التحليل ومتابعة الأحداث والمواقف في تفاصيلها يحتاج توفّر وثائق ومعلومات وشهادات يكاد يكون من المستحيل الحصول عليها في الوقت الراهن.

ما زال للجبهة محبّوها والمتعاطفون معها حتى من الجيل الذي نشأ وكبر بعد الانقلاب، وما زال منتسبوها مستمسكين بحقّها في العمل السياسي والمشاركة في التغيير كلٌّ من منطلقه وتصوّره برغم كلّ ما حدث لهم، وما زالت ملفّات المفقودين المختطفين تؤرّق النظام وتقضّ مضجعه، وما زال التحقيق في المجازر والمذابح التي حدثت ومن هو المسؤول عنها تشكّل تهديدا حقوقيّا وسياسيا محلّيا وعالميّا يسعى النظام بكلّ ما أوتي من قوّة ألّا يتمّ فتحه، وما زالت مآسي السجون والمعتقلات وانتهاكات حقوق الإنسان فيها تطلّ برأسها في كلّ عام مرتين أو ثلاثا، وما زالت مطالب المحاسبة والمساءلة والتحقيق والبحث عن الحقيقة وراء كلّ ما جرى و معاقبة المتورّطين فيه قائمة لا يملّ أصحابها ولا يكلّون، وما زالت قيادة الجبهة الإسلامية التاريخية متمثّلة في الشيخين عباسي وبن حاج وغيرهما على قيد الحياة.

وفي الوقت نفسه ما زال للجبهة الإسلامية إلى اليوم أعداؤها والمتربصّون بها داخل مؤسّسات الدولة وخارجها في الأحزاب اللائكية وجمعيات المجتمع المدني التي يسيطر عليها اللائكيّون ويوظفّونها في أيّ اتّجاه يريدونه، وما زال خصومها من داخل الصفّ الإسلامي يكرّرون المبرّرات والحجج نفسها ويشعرون - خطأً وسوءَ تقديرٍ- أنّ عودة الجبهة تهدّد مكتسباتهم وتخصم من رصيدهم السياسيّ ومن وعائهم الانتخابيّ وتزاحمهم في الحضور الميدانيّ، وما زالت وسائل الإعلام كلّها تقريبا تمارس نفس الدور القذر في تشويه وتحريف كلّ ما له علاقة بالجبهة الإسلاميّة، وما زال عدد آخر كبير من الشباب الذي لم يعايش أحداث عشرية الدم و الدموع ضحيّة لهذا التشويه والتحريف.

وسوف تبقى كلّ الملفّات السابقة مفتوحة حتى يسقط النظام المتسبّب في ذلك والمتكتّم على كهوف الأسرار الرهيبة التي تكتنف الأحداث منذ أكتوبر 1988 إلى ما بعد سنة 2000، وحتى ترجع الحقوق إلى أصحابها، وتظهر الحقيقة التي عمل النظام وعرّابوه على إخفائها باستفتاء شعبي على ما يسمّى (قانون المصالحة) تحت الإكراه المعنوي والابتزاز السياسيّ والإعلاميّ وبالرشى الاجتماعيّة والسياسيّة في الداخل و بالعمالة للخارج. وسوف تبقى تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ محطّة مفصليّة في تاريخ الجزائر المعاصر ما بعد الاستقلال لا يمكن لمؤرّخ ولا قارئ واعٍ أن يتجاوزها أو يغضّ الطرف عنها أو يهوّن من تأثيرها السياسيّ والاجتماعيّ إلى اللحظة التي تُكتَب فيها هذه الكلمات، فلا يمكن لتجربة بهذه الضخامة وهذا الصدى وهذه التضحيات التي بلغت ربع مليون قتيل إذا صدّقنا رواية السلطات وآلاف من المعتقلين في محتشدات الصحراء وعشرات الآلاف من السجناء و ما يقارب 27000 مختطف ومليون مهجّر أن تُنسى وتُهضم حقوق أصحابها وتعفو عليها رياح النسيان وتغفل عنها الأجيال فلا تتعلّم منها ولا تستفيد.

خاتمة

ولا أملك في آخر هذا الكتاب إلا أن أتوجّه بنداء صادق وملحّ إلى كلّ من كان له يد وتأثير وعلاقة بالأحداث أن يسارع إلى كتابة مذكراته وتسجيل شهادته وتأمين ما لديه من أرشيف، وأن أدعو طلبة التاريخ الجزائريّ المعاصر أن يخصّصوا أطروحاتهم وبحوثهم حول هذه الفترة ليجلّوا عنها الغبار ويكشفوا ما أحاط بها من تشويه وتحريف متعمّد مقصود ويزيلوا الباطل الذي التبس فيها بالحقّ، وأقرّ أخيرا أنّني تجرّأتُ على الكتابة في موضوع شائك شحيح المصادر جدّا يتهيّب أكثر المؤرّخين والإعلاميّين الكتابة فيه، وعزائي أن أعرّف إخواني من غير الجزائريّين على فترة حساسّة وحاسمة من تاريخ إخوان لهم في بلدٍ كثيرٌ منهم لا يعرفون عن تاريخه القريب شيئا، وما أبرّئ نفسي من الخطأ و ميل القلب مهما ادّعيتُ ذلك أو حِرصتُ عليه.



هدية العدد ٢٢ من مجلة كلمة حق مايو ٢٠١٩